إشراق

رواية

محمد العدوي

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م

ملتزم الطباعة والنشر

دار الفكر العربي

٩٤ شارع عباس العقاد – مدينة نصر – القاهرة

ت ٢٢٧٥٢٧٩٤ – فاكس: ٢٢٧٥٢٧٣٥

٨١٣,٠٩ محمد العدوي

م ح إ ش إشراق: رواية/ محمد العدوي. – القاهرة: دار الفكر العربي، ١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩ م.

١٣٦ ص، ٢٠ سم

تدمك: ٢- ٢٥١١-١٠ -٩٧٧

١ – القصص العربية – تاريخ –العصر الحديث. أ – العنوان

رقم الإيداع	٢٠٠٩ / ١٣٦٦١
I.S.B.N	٢- ٢٥١١- ١٠- ٩٧٧

إهداءٌ

إليك وحدك،،،

لو تعرفين!

"لا يشغل الحياةَ متى تعلمتَ المشي، لكنها تحفظ آثار أقدامك؛ لتريك
حين تصل في أي طريق سرت"

مبتدأ

تأتي البدايات متشابهة، لكننا نفاجأ عند الوصول، أن البدايات المتشابهة لا تعني نهايات واحدة، وإن أصرت الحياة منح الجميع نهاية واحدة لا تتغير.

رغم المشابهة في الصورة إلا أنها أبدا ليست متشابهة،

(١)

لا أذكر -على التحديد- متى بدأ إدراكي لهذه الكلمة، متى سمعتها أول مرة، متى جربت أحرفها، ومتى أصبحت علامة على أمر محدد في خاطري، لا يمكن بسهولة التوصل لمنابع الأنهار حين تكون غائرة في الصخور البعيدة، ربما يمكننا أن نرى الماء المنبعث منها، لكن الوصول إلى هناك حيثُ ينبع الماء، قد يكون أكثر خطورة من النوم في عرض هذه الأنهار.

حين صرخ فيّ: "يا أخي بقول لك ربنا اللي بيقول! إيه! إنت كلام ربنا عندك ملهوش قيمة؟!"

تفجر في خاطري هذا السؤال:

لماذا غضب حين لم يلحظ اهتمامًا بما يقول؟

أستطيع القول إنه نجح في صنع حالة من الارتباك لدي، شعرت أن المشكلة لابد تكمن فيّ أنا الذي لم أجد في حديثه المرفوع إلى الله شيئًا يستحق الاهتمام، هل غضب لأنني لم أقبل حديثه هو؟ أم لأنني لم أقبل حديثا مرويا عن الله؟

ربما كان إحساسًا عميقًا بالذنب، هو الذي حملني على أن أفتش عن وجود الله فيّ.

ألا يعني حديث الله لي شيئا كما يقول هو؟

أين يكمن الله في نفسي؟

متى عرفته أول مرة ؟

كيف عرفته؟

وهل يعرفه هو أكثر من معرفتي به؟

* * * * *

حين كنت طفلاً، كنت أسمع تحذير أمي وأنا أحكي لها ما حدث في المدرسة: أنّ الكذابين يعاقبهم الله في النار، وأني إذا لم آكل شطائري التي تعدها لي وتخلصت منها عندما لا تعجبني، يعاقبني الله أيضا في النار.

وكنت أحفظ من أبي أن "الله ربي والإسلام ديني ومحمد نبيي"،

يفرح أبي كثيرًا حين يطلب مني أن أعيدها، والكثيرون ممن كانوا يرونني وأنا صغير، يفاخرهم أبي بأنني أحفظ الفاتحة والمعوذات، يسألوني ذات السؤال: "من ربك" ويدعون له بالبركة فيّ حين أجيب إجاباته التي حفظنيها.

لم أشعر في حينها بأية علاقة بين الله الذي هو ربي، والله الذي يملك النار التي يعاقب بها الذين يحكون حكايات لم تقع، لم يصنع عقلي في حينها صلة بينهما، إلا حين توفي جدي لأمي وعللوا ذلك بأنه ذهب إلى الله.

كنت أحب جدي كثيرًا، لحيته الخفيفة، وشعره الرقيق الأبيض ووجهه المحمـــر، وغليونه الذي لا يفارق يده، وثيابه الداكنة دائمًا، والمسدس الذي يحمله في ســـترته، وسائقه الذي لا يغادر سيارته أبدًا في انتظاره حين يخرج، كل ذلك كان يـــصنع لـــه صورة مميزة في نفسي، صورة تغاير كل من أعرف، تغاير جدي الآخر وأبي والأستاذ إحسان مدير مدرستي.

لا يمكن بحال أن يذهب جدي إلى النار، حين أهداني علبة ألوان خشبية فرحت بها، لكنني أخبرته أنني أريد بدلة كالتي يرتديها، ومسدسًا كالذي يحمله معه دائمًا، لم أعرف في أي شيء يستخدمون المسدسات، لكنني أردت أن أشبهه. لم يتأخر، وأحضر لي بدلة بنية كانت أكبر مني، فبقيت لديّ عدة سنوات حـــتى اســـتطعت ارتـــداءها، ومسدسا بطلقات يصدر صوتًا قويًا وشررًا ضعيفًا، أقتنع أنه يشبه الذي معه إلى حـــد كبير، وحين كان يرسلني أشتري له الصحف ويسميها باسمها، أقول له ألا يكفي اسم واحد وصحيفة واحدة، مادامت الأحداث كلها واحدة فلابد أنها ســـتتكرر في كـــل الصحف، يبتسم وهو يقول لأمي إنني لا أفكر كما يفكر الأطفـــال، ثم يقـــول لي إن كون الحدث حقيقة واحدة ثابتة، لا يعني أن تكون رؤيتنا له صورة واحدة ثابتة، وهو ما لم أفهمه منه في حينها.

كان أبي يقول إن الذين يدخنون يدخلون النار، يضحك وهو يقولها لجدي حين يهم بإشعال سيجارته أمامنا، فيبتسم جدي ويقول: إن الله غفور رحيم.

حين أخبرت أمي بذلك، قالت لي إن جدي ذهب إلى الجنة.

سألتها: ما الجنة؟

قالت إنها مكان جميل يذهب إليه من نحب حينما يفارقونا.

قلت: وهل يملكها الله أيضا؟

قالت: نعم، إن الله يملكها كما يملك النار.

سألتها: وهل سنذهب نحن أيضا إلى هناك؟

قالت: نعم.

جدي لم يذهب إلى النار كما تقول أمي، مع أنه كان يدخن، وأنا سألحق به، مع أني أحكي لأمي حكايات لم تقع، وأتخلص من شطائري التي لا أحبها.

لم أفهم لماذا تكون النار موجودة مادام لن يدخلها المدخنون والـذين يحكـون حكايات لم تقع!

وحين سألت أمي: من يذهب إلى النار إذا؟

قالت إن النار إنما يذهب إليها الكفار الذين يؤذون الناس، ويأخذون ما ليس لهم ويكذبون.

أضافت إجابتها كلمة جديدة لم أفهمها:

من هم الكفار؟

ولماذا يؤذون الناس ويأخذون ما ليس لهم؟

وهل كل من يؤذي الناس ويأخذ ما ليس له، يكون من هؤلاء الكفـار الـذين يذهبون إلى النار؟

كانت كل هذه الأسئلة بغير إجابات في العادة، و لم يكن غياب الإجابات ذا قيمة كبيرة في الحقيقة، لأنني سريعًا ما كنت أنساها ولا أشغل بالي بها، إذ لم يصادفني أحد يحمل هذا اللقب، لا في المدرسة ولا في الشارع ولا حتى في برامج الصور المتحركة التي كنت أتابعها بانتظام.

عرفت بعد ذلك في دروس السيرة، من هم الكفار، هم الذين آذوا رسول الله – صلى الله عليه وسلم- حين طلب منهم ألا يعبدوا الأصنام وأن يعبدوا الله الواحد.

أبو جهل وأبو لهب وزوجته التي كانت تحمل الشوك وتضعه في طريق الرسول – صلى الله عليه وسلم- أو تضع القاذورات على رأسه وهو يصلي، هم الكفار.

وهؤلاء الكفار، انتصر الرسول –صلى الله عليه وسلم- عليهم في آخر الأمـــر، وعاد إلى مكة بعد أن كان قد خرج منها.

كانت كتب السيرة تصف كل الذين كذّبوا الرسل بـــذلك، نـــوح وإبـــراهيم وموسى وعيسى، جميعهم كان حولهم كفار لا يؤمنون بهم، وجميعهم انتصرت عليهم الرسل في النهاية، لم يذكر لنا أستاذ السيرة كفارًا كانت لهم الغلبة على نبيهم، هـــود وصالح ولوط، كل هؤلاء انتهى أقوامهم بالفناء؛ لأنهم كذبوا ما جاءت به الأنبياء.

ليس في الدنيا الآن إذًا كفار؛ لأنه لم يعد هناك أنبياء، هكذا فكرت وقتها، فآخر الكفار انتصر عليهم الرسول –صلى الله عليه وسلم- في مكة، أخبرونا أنه حين تـــوفي الرسول –صلى الله عليه وسلم- كانت كل جزيرة العرب قد أصبحت تـــؤمن بـــالله الواحد.

سألت في ذلك أستاذ التاريخ، فأخبرني أن هناك كفارًا لم يروا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولم يعرفوه، وهؤلاء حرص الصحابة على إيصال دعوة الرسول إليهم، الذين كذبوها منهم بقوا كفارا، أما الذين قبلوها أصبحوا هم أيضا مؤمنين.

قال إن اليهود والنصارى أيضا قد أصبحوا كفارًا.

قلت: لكنهم لم يكذّبوا أنبياءهم، أليس اليهود هم من آمنوا بموسى، والنصارى هم الذين آمنوا بنبي الله عيسى، إنهم مؤمنون إذًا لم يكذبوا رسلهم؟!

قال: لكنهم كذبوا الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وقد أُرسل إليهم أيضا، كما أُرسل إليهم من قبل أنبياؤهم موسى وعيسى.

حين كنت أسمع حكايات الصحابة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو أشاهد في أيام الهجرة وذكرى المولد النبوي، الأفلام التي تحكي قصته، كنت أتمنى لو كنت موجودًا معهم، أو كان بيننا نبي حي نحبه كما كانوا يحبونه، تحدث لنا المعجزات التي تحدث لهم، كنت أتمنى لو أشاهد البحر الذي انشق لسيدنا موسى، أو أرى عين الصحابي التي ردها الرسول -صلى الله عليه وسلم- في مكانها.

ما أعجب منه الآن، أن هذه الحكايات لم تكن تلقى رفضا في نفسي حينها، رغم بعدها عن التصديق العقلي، فلا البحر يمكن أن ينشق، أو العين الساقطة يمكن أن تعود، ومع ذلك كنت أصدق دون أن أشعر برغبة في السؤال عن كيفية حدوث هذا.

عرفت أن الأنبياء مخلوقات عظيمة، قد يشبهون الملائكة، لذلك يفعلون أشياء لا تشبه أفعال البشر، ولذلك أيضًا تمنيت أن أكون معهم،

لا أعرف لو كان ذلك ممكنًا، لو كنت أيام نبي من هؤلاء الأنبياء، مع أي طائفة سأذهب؟

التي تلتف حولهم أم تلك التي تعاديهم؟
هل يختار الناس الفريق الذي ينتمون إليه؟
وكيف يختارونه؟

كيف يصبح الناس أنبياء، أعلم أن الله هو الذي يختار مَن يصبح نبيًا، وأتساءل لماذا لا أكون نبيًا أنا أيضًا، أريد أن أصبح نبيًا كنبي الله سليمان.

كل الأنبياء الذين عرفتهم كانوا فقراء ما عداه، أما هو فكان ملكًا أيضاً، أحب دوما أن أسمع حكايته من أي أحد، في المدرسة لا يسألنا أستاذ عما نريد ونحن في وقت فراغ، إلا ويكون صوتي الأول، أريد حكاية سيدنا سليمان، وفي البيت حين أجد فسحة في وقت أبي، أطلب منه أن يحكي لي حكايته.

هل يمكنني أن أكون نبيًا يومًا ما؟!

(٢)

في تلك المدينة البعيدة، كنا أغرابًا لا نعرف أحدًا، حياتنا كلها لم تتعـــدّ أفـــرادًا يمكن عدهم على الكف الواحد، لا اختلاط لنا بجيراننا ولا أصدقاء كثيرين يزورونا.

لم يكن هذا مما يصنع في الحقيقة مشكلة بالنسبة إلي، فوقتي كله ممتلئ، وإن كنت أتعجب الآن بأي شيء كنت أملؤه في فراغ تلك المدينة البعيدة!

فقط حين مرضت أمي، شعرت بأن هذا الفراغ قد اتسع، وأن يداي اللـــتين لم أشعر أبدًا بفراغهما، أصبحتا تقبضان على الهواء، كان بكاؤها وهي تتألم في غياب أبي يشعرني بعجز كبير.

وحدي في المدينة الغريبة، أحاول أن أبحث لها عما يخفف عنها.

لا شيء يمكنك فعله، لاسيما إن كنت مقيدًا بذاتك، مقيدًا بأشياء لا تراها.

لا أعرف أحدًا أطلب منه المساعدة، ولا تطاوعني يدي أن أطرق باب جـــار لا أعرفه.

وجدت نفسي أتذكر -مما تعلمناه في المدرسة- أن الدعاء يهبنا ما نريد، لم أكن قد جربت شيئا مما أدرسه قبل ذلك، بل لم أكن أشعر أن صلة ما يمكن أن تربط بين عالم المدرسة وعالم البيت، حتى زملاء المدرسة لم تكن لي بهم صلة إذا انتهى العام الدراسي وافترقنا.

في ذلك اليوم توضّأت وصليت، تعجلت الوصول إلى السجود الذي أعلم أن الدعاء يكون فيه.

ودعوت: "يا رب ماما تعبانة قوي وأنا مش عارف أعمل لها حاجة، خفف عنها واشفيها يا رب"

كررت الدعاء بذات الصيغة وحدها، وكنت كلما تكرر أشعر به يعلو في نفسي، كأن قوة مختفية فيّ تريد أن تطير به عاليًا. وكلما ازداد خفقان هذه القوة أشعر أن حملاً ثقيلاً يتزاح عن صدري وأن نسيمًا باردًا يحل مكانه حتى احتواني كأنه حضن عميق دافئ لا أريد أن أتركه، فبقيت أدعو حتى نمت في مكاني.

كان الشعور جديدًا لم أعرفه من قبل، وحين صحوت، كنت خفيفًا سعيدًا يملؤني اطمئنان وشعور أن أمي ستكون بخير.

أُصلي كل يوم قبل أن أنام وأدعو لها، حتى يحتويني ذلك الحضن الدافئ فأنام.

* * * * *

قبل ذلك اليوم لم تكن علاقتي بالصلاة واضحة، إلا حين يسألني أبي عنها وأنا أتابع أحد برامج الرسوم المتحركة التي أحبها فأجيبه دوما بالإيجاب، لئلا يطلب مني أن أترك ما أفعل وأصلي. وحين عرف ذلك لم يعد يطلب مني القيام، كان يقول لي:

"خلّص اللي في إيدك وقوم صلي"، و لم يكن أحبَ إليّ من هذه العبارة التي تُذهب عني عبء إحساس بالضيق وحرارة تعلو وجهي وأنا أخبره أني صليت، فأقوم أحيانا ولا أقوم كثيرًا.

بدأت أضيف في جملة الدعاء التي لم تتغير طلبات أخرى جديدة، "يا رب أبقى الأول في المدرسة"، أتلهف للصلاة لأدعو بهذا الدعاء، ثم أعود إلى مذاكرتي وأنا أتعجل الصلاة التي بعدها، حتى انتهى العام وأنا الأول للمرة الأولى.

أصبحت أشعر أنني والله صديقان، أنه لا يرد لي طلبًا أطلبه منه، وأنه يحبني وأنا أيضا أحبه، أطلب منه كل شيء أريده، وهو يعطيني ما أطلب.

كلما زاد لي حلم، زدت في الدعاء جملة، أكرر أدعيتي بصيغها، تمنحني سعادة كبيرة وأنا أدعو بها، وسعادة أكبر عندما تتحقق.

لم يخب دعائي مرة واحدة في تلك الفترة، حتى تيقنت أنه لا يمنعني عن أي شيء أريده إلا أن أطلبه من الله.

أخبر الله في دعائي بكل شيء.

حين أغضب من زملائي، أخبره وأسأله إن كنت على صواب أم لا، أشعر أنه لا يمكن أن تكون هناك مشكلة كبيرة أعجز عن حلها ما دام الله قريبًا مني هكذا.

لم أعد أشعر بالقلق الشديد حين تتألم أمي، لأني أعلم أن الله لن يتركها، ولا حين يغيب أبي أياما طويلة في سفره، حتى دروس اللغة الانجليزية التي لم أكن أحبها، والتي كانت أثقل أوقات المدرسة إليّ، أصبحت خفيفة على نفسي وأصبح استذكارها ممتعًا أيضًا.

غيرني الدعاء كثيرًا، تعلقت كل أشيائي به، أصبحت أكثر اهتمامًا بدروسي، وانتظمت أوقاتي، وأدركت معنى أن أحمل ساعة في معصمي، وتعلمت كيف أريد.

تعلمت أنه لا يحجبني عن شيء إلا إرادَته، وحين أريده سأطلبه من الله وأنا أسير إليه، ومهما تأخر أو طال الطريق، فلابد أن أصل إليه.

كانت تلك سعادة جديدة أعرفها.

"أن أريد" صنعت لي حياة من العدم. حين لم يكن لدي شيء أريده، كانت الأيام كلها متشابهة، حتى ألعابي كانت متشابهة، أشعر برتابتها ومللها وأنا أؤديها، فأتركها سريعًا دون أن أعرف سببًا لذلك،

حتى مذاكرتي كانت مملة أيضا، لم أكن أعرف لها سببًا واضحًا، كنت أخشى غضب أمي إذا لم تأتي نتيجتي حسنة، رغم أن الجهد الذي أصبحت أبذله في المذاكرة، أقل بكثير مما كنت أفعل، إلا أنني أصبحت أحصل درجات أعلى بكثير مما كان.

كأنه كان ينقصني أن أريد ذلك، أن أعرف سببًا لما أقوم به، لم تتغير طريقتي ولا ساعات مذاكرتي، ليس من شيء في ذلك قد تغير، كنت فقط أشعر "أنني أريد" فيتحقق لي ما أريد.

بقي دعاء نبي الله سليمان يراودني كثيرا: "رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي".

اسأل أبي في ذلك، فيقول لي إننا ندعو كريما لا حدود لعطائه، ومن إعطائه حقه أن ندعوه بأشياء عظيمة؛ لأنه هو عظيم. لم أكن أستطيع أن أخبر أبي برغبتي في أن

أشبه نبي الله سليمان، لكنني وجدت ذلك مع الله، ورغم يقيني أن من تمام إجابة دعوة سيدنا سليمان، ألا يكون أحد بعده مثله إلا أنني أخبرت الله بما في نفسي.

أخبرته أنني أريد أن أكون كنبيه سليمان. سأخبر نبي الله سليمان بذلك حين ألقاه في الجنة، وأقول له إن محبتي له هي التي منعتني أن أدعو بدعائه لكنني دعوت أن أشبهه.

(٣)

الشعور الذي يلازمني حين أرى رانيا غريب لا أعرفه، شيء من سعادة وانقباض وبرودة تنتهي إلى بهجة لم أجرّبها من قبل، لا تشبه البهجة التي أحصل عليها حين أدعو، ولا حين أحصل على شيء كنت أنتظره.

رانيا تعيش وحدها مع أبيها، بعد أن انفصلت عنه أمها وتزوجت في مدينة أخرى، تدرس في نفس السنة التي أدرس فيها. منذ جاءوا إلى عمارتنا وهي تختلف إلينا كثيرًا؛ هربا من وحدتها ومن قسوة أبيها الذي طلق زوجتين بعد أمها.

تجلس مع أمي وأخواتي، وتكون غاية سعادتي، أن تطلب كتابًا من كتبي، فتأتي أمي لتقول لي: هات كتاب العلوم لرانيا علشان نسيت كتابها في المدرسة.

كانت هذه العبارة وحدها كافية لتطلق البرودة في كفي وأنا أبحث لها عن الكتاب، وحين تطلب مني أن أصحبها لآخر الشارع؛ لأن صِبيَة هناك تعاكسها أسير معها صامتا جاف الحلق لا أنطق، وأنا أسمع صوت قلبي يدق عاليًا وأخجل منه أن تسمع صوته، وحين أعود يخف صوته ويصبح جسدي أكثر خفة وحرية، وأظل مبتسمًا حتى أنام.

ويوم جمعتُ عليّ نفسي وسألتها: إزيك؟ جاء جوابها: (كويسة) كلمة صغرت أمامها كل كلمات اللغة التي أعرفها، وبقيت أستعيدها وأنا أشعر بفرحة في نفسي لا أفهمها.

رطبت الأيام حلقي، فاتصل حديثنا وغابت عني البرودة التي كنت أشعر بها وصوت قلبي الذي كان يخجلني، وبقيت لي الفرحة الهادئة حين ألقاها، وحين أذكرها إذا أويت إلى نومي كل ليلة.

تحكي لي عن أمها وأبيها، عن شجاراتهم التي لم تعِ سواها، تترك معي رسائلها التي تكتبها لأمها، أضعها في البريد، لا يسمح لها أبوها أن تتصل بها إلا قليلاً، وحين تأتيها رسالة من أمها، تحملها لنا، نقرؤها معها، كانت أمها أكثر حضورًا في حديثها من أبيها البخيل كما تقول.

رانيا طويلة، بشرتها بيضاء وشعرها بني ضارب إلى الصفرة، كل ثيابها كعينيها، تميل إلى اللون الأزرق الذي تحبه، كالشمس تدرك أنها تشرق في هذا اللون أكثر من أي لون سواه.

كانت تشتري ثيابا كثيرة، كل أسبوع تخرج وحدها إلى السوق، وحين تعود، تطلعنا على كل ما اشترته، تقيسه كله قبل أن تصعد إلى بيتها، فتضعه في خزانتها ولا تعود إليه، ليست هناك مناسبات كثيرة لكل هذه الثياب، غاية بهجتها أن تمتدح لها ثوبًا جديدًا أو عطرًا رقيقًا من تلك العطور التي كانت تضعها، أمها هي التي ترسل إليها النقود التي تشتري بها، تقول لها في كل رسالة: "اشتري كل اللي نفسك فيه"، تضحك حين تصل لهذا الجزء من الرسالة، وهي تقول: "ماما عاوزاني أجيب كل اللي نفسي فيه!!"، ومرة قالت: "بس لو أعرف هوَّ إيه اللي نفسك فيه ده؟! كنت جبته على طول".

إنني وأنا أكتب ذلك الآن، يحضرني عطرها الذي كانت تضعه، وتكبر صورتها في عيني، لأراها بذات إشراقها في نفسي ساعة كنت أحس خطوها أو أشعر اقترابها، كانت تلك علامتي التي أدرك بها قربها، حين تشرق نفسي، حين تكون خفيفة ولا يكون حولي سبب واضح لذلك أعرف أن رانيا قريبة.

هكذا تكون أوليات إدراكنا لذواتنا، حدائق في نفوسنا تنتظر أن نكشفها من جديد، حتى تفوح، تسكننا بقوة، حتى إن ردمت الأيام أجزاءها، تبقى هي تنتظر يدك تنفض عنها ردمها؛ لتقول لك إنني هنا متى أردتني، قريبة إليك فكن قريبا أنت أيضًا.

زدت في دعائي هذا السطر الجديد:

"يا رب تبقى رانيا قريبة مني وما تبعدش أبدًا".

لا أعرف لماذا فكرت في ذلك، ولا كيف فعلته، كنت أدعو كما أفعل دومًا، وكلما خفت نفسي في الدعاء أشعر أن رانيا حاضرة معي، لا أستطيع أن أفصل كلا الإحساسين اللذين يجتمعان في نفسي ساعتها، كالعطور الكثيرة المخلوطة لا تستطيع أن تشيع فيك شعورًا واحدًا واضحًا، كما يفعل عطر واحد ولو كان ضعيفًا.

لم تستقر العبارة بهدوء في صيغة الدعاء كما اعتدت، فكرت أن دعائي قد أصبح طويلاً؛ لكثرة الأشياء التي وضعتها فيه، فضاق عن رانيا، لكنني أضع أي شيء جديد آخر، فلا أشعر بما أشعر به من غرابة.

بعد فترة من معرفتي برانيا، استعملت لفظ الحب لأول مرة في حياتي، وأنا أخبر الله بما أشعر به.

أخبرته أنني أحببت صبية جميلة اسمها رانيا، وأنني أريد منه أن يحفظها قريبة مني.

لم أكن أريد أكثر من ذلك، كان قربها وحده يصنع بهجة كبيرة في نفسي، لكنني دوما كنت أشعر أن في الأمر شيئًا ما.

لا تستقر العبارة بسهولة في صيغة الدعاء مهما حاولت، كما أن إحساسًا غريبًا يحضرني إذا وصلت لهذه العبارة في الدعاء!

وأنا أدعو، أستطيع أن أعرف أي دعاء سيستجيبه الله سريعًا من إحساسي ساعة الدعاء، كنت قد جربت أن أدعو فأشعر أنني لن أنتهي حتى يتحقق لي ما أريـــد، وأن أدعو بشيء فأشعر أن شيئا يشبهه سيحدث، لكنه لن يتحقق كما أريد، أما إحساسي هنا، فكان جديدًا جدًا.

لأول مرة تنطفئ نفسي فجأة وأنا أدعو!

ألا يفرح الله حين أحب رانيا، ألا يفرح حين أخبره بما في نفسي لها، إنها تحمل لي سعادة بحجم تلك التي يحملها لي الدعاء.

لم أعبأ كثيرًا بهذا الإحساس، وألححت على وضعها في دعائي، والعبارة التي بدت غريبة أول الأمر، سرعان ما ذابت فيما حولها حتى أصبحت منها، وعاد دعائي هادئًا مستقرًا يحتوي حلمي الجديد وصديقتي الجديدة، وإن خفت الدفء الذي اعتدته فيه.

لكن رانيا سافرت!

انتهى عقد أبيها وسافرت فجأة دون تحذير.

وفجأة أُجرِّب الفقد لأول مرة في حياتي.

وأُجرِّب أيضا كيف لم يسعفني دعائي.

هل غضب الله مني لأنني وضعت في الدعاء شيئًا غريبًا عليه؟ هل كانت رانيا حقا غريبة على الدعاء؟

هل يغضب الله حينما نحب؟

أو يكره الله أن نخبره بذلك؟

بكيت لله كثيرًا؛ لأنه حرمني هذا الحلم، بكيت وأنا أخبره أنني زعلانٌ؛ لأنه خذلني هذه المرة. ليس في نفسي شر وليس في نفس رانيا شر، أنا أعرف نفسها كثيرًا، كنت أجد طيبة نفسها وأنا أقرأ خطاباتها لأمها، وأنا أشتري لها هدية أخيها من أمها، وأنا أحمل عنها حقائبها الصغيرة إذا خرجت تشتري لوازم البيت التي لم يكن يحضرها أبوها بانتظام، وأنا أتصفح معها عالمها النسوي الصغير.

أصبح دعائي في تلك الفترة فاترًا لا حماس فيه، كففت عن إخبار الله بحزني على فقدها، و لم أعد أشعر برغبة في أن أطلب شيئًا آخر جديدًا، بل لم أعد أريد أي شيء، أصبحت مغلق النفس يستوي حولها النور والظلمة والشذى والقذى، يستوي الجـــوع والشبع، الضحك والحزن، توقفت كل المعاني التي تعلمتها للأشياء في حياتي.

سألت أستاذ التربية الإسلامية أسئلة كثيرة عن الدعاء.

هل يجاب على الحقيقة أم لا؟

ولماذا لا تجاب جميع الأدعية التي نطلبها، قال لي "إننا ندعو لأن الله طلب منـــا ذلك، وهو أدرى بما ينفعنا، إننا قد ندعو بما ليس من مصلحتنا، وإن نظرتنا الصغيرة قد ترى في شيء سعادة يخبئ الله لنا دونها سعادة أكبر".

حفظت كل الأحاديث التي تتحدث عن الدعاء، قرأت في أوقاته، وما يعين على إجابته، و لم يخفف عني معرفتي أن الله حين لا يجيب دعاء إنما يخبئ لنا أجمل منه.

ليس في الدنيا أجمل من رانيا، من صوتها، من حديثها، من ضحكها.

ليس أجمل من"كويسة" التي تجيب بها عن سؤالي: إزيك.

ليس أجمل من غضبها إذا جاءت عابسة من أبيها.

ليس شيء أجمل منها في الدنيا.

* * * * *

بقيت لي من رانيا أشياء كانت أول ما وضعْت في صندوق ذاكـــرتي، رســـالة تركتها معي أضعها في صندوق البريد لأمها، ودفتر كبير كنت أشرح لها فيـــه دروس العلوم.

أحرف جديدة لم تترتب بعد في كلمة.

وأحلام صغيرة لم تُولد.

(٤)

تبدأ إدراك خطوط الرجولة المرسومة فيك، حين يبدأ إحساسك بنقصٍ في نفسك، لا يستطيع كل ما اعتدته فيما حولك أن يملأه، لأول مرة أشعر أن كتبي التي أحبها وأصدقائي وساعاتي التي أقضيها في الرسم دون أن أشعر بما حولي، كل ذلك يقف عاجزًا أمام شيء ما لا أتبينه.

غياب رانيا ملأني بهذا الشعور، كأنما في نفسي ركنٌ واسعٌ خالٍ، يُفقدها اتزانها، فيجعلها تهتز عند أقل حركة، لم يعد لأي شيء حولي معانٍ واضحة، حين سافرت رانيا، تخلّت كل الأشياء عن معانيها، الألوان والأصوات والحروف التي تملأ كتبي، كل ذلك أصبح يحمل صمتًا موحشًا غريبًا كأنني وحدي في قاع بئر عميقة.

و لم يكن يخفف عني هذا الإحساس، إلا استحضار رانيا.

خيالها الساكن في كل ركن جَلسَتْ فيه، ضحكتها المعلقة بستائر الحجرة التي كنا نجلس فيها، عطرها الذي كانت تستشرف به عالمها الأنثوي الصغير، أشرطة ألعاب الفيديو التي لعبنا سويًا بها، دفاترها وكتبها التي تركتها، كل ذلك كان يحفظ روحها حية ليجمعها لي حاضرة، أحدثها بكل أخباري الجديدة، أكتب لها وهي ماثلة أمامي،

أحكي لها النكات التي كانت تضحك منها، أشرح لها الدروس الجديدة التي أتعلمها، وأخبرها بما انتابني حين سافرت، بحزني وبرغبتي أن تكون أقرب.

وأكتب كل ما مر بنا، كل حديث تبقى في ذاكرتي، كل عمل وكل لقاء، وكلما كنت أكتب أتبين أشياء جديدة لم تكن ظاهرة لي في حينها،

اكتشفت في الكتابة متعة لم أكن أدركها، لم تحفظ الكتابة ساعاتي الجميلة التي رحلت وحدها، بل كانت تصنع لي ساعات جديدة أيضا، لحظات كثيرة مرت صامتة لم تُنر نفسي في حينها وجدْتُ نورها وأنا أكتبها، أصبحت رانيا أكثر حضورا في غيابها، الكتابة هي التي جعلتها بهذا الحضور، جعلت كل تفاصيلها أكبر وأكثر صفاءً، حتى أحلامي معها بدت أكثر وضوحا،

عرفت وأنا أكتب أن رانيا هي حبي الأول، أنها هي التي كشفت غطاء قلبي، وأنها الشذى الذي كتب أبجدية العطور في نفسي.

قبل ذلك، لم يكن معنىً واضحًا للفظ الحب قد استقر في نفسي، حتى حين استعملت الكلمة في الدعاء أول مرة، لم أكن أُعبّر بها إلا عن إحساس جميل، أجده لقربها، وإن لم تبد حدود واضحة له.

لم تكن معاني هذه الكلمة -في لغتي- تخرج عن شروح لأبيات الشعر التي ندرسها في المدرسة، وعبارات أحفظها من الأفلام الكثيرة التي أتابعها، تجعلني أسأل إن كان الشاعر لابد له أن يكون محبًا، وهل لابد للشاعر المحب من حبيبة تهجره، ليكون شاعرًا؟ ولماذا لا يتزوج الشعراء المحبون في كل القصص التي نعرفها؟ أم أن الهجران وبُعد الصلة هما ما يجعل الحب مخلدًا في الكتب والقصص والقصائد؟!

كنت أشعر أن أبياتًا أجمل من سواها، ومشاهد في الأفلام تظل في نفسي أطول من غيرها، كأن في هذه الأشياء جمال خفي لا أتبينه، جمال ينتظرني أن أكشفه، شيء يختفي وراء كل كلمة أو نظرة أو حتى لمسة أراها، لكن شيئًا من ذلك، لم يكن ليصل إليَّ كاملاً، ربما كان ذلك لنقصٍ في خطوط رجولتي التي كانت بعدُ باهتة لم تكتمل.

وحين وضعت رانيا بيدها الجميلة تمام هذه الخطوط، وحين أكسب غياب رانيا هذه الخطوط ألوانًا جديدة، لم تكن موجودة، وحين ضَمّت أوراقي كل ذلك، خـــرج المعنى الجديد لهذه الكلمة، بخطها وألوان ثيابها وعطرها مطبوعًا في كل قصيدة وحكاية ومشهد.

* * * * *

فرحتُ كثيرًا بالكتابة واتسعتُ فيها، أصبحتُ أكتب كل شيء حولي، شجاراتي مع زملائي، الأحاديث التي كنت أحدّث بها نفسي وأنا أقطع الطريق مـــن المدرســـة وإليها، حتى ما يدور بذهني وأنا أشاهد فيلمًا أو مسلسلاً جديدًا.

أفكار كثيرة أصبحتُ أجدها حية، كانت تمر وتموت دون أن أدركها، حتى كأن اليوم الذي أكتب فيه صفحة أطول وأكثر امتلاءً من أيام كثيرة تمر صامتة موحشة.

ليس من عبث إذا أن تكون الكلمة سر الكون الأعظم.

تعلمها آدم ففاق بها الملائكة.

وتعلمتها، فحفظْتُ رانيا في نفسي عطرًا معتقًا لا تزيـــده الأيـــام إلا رســـوخًا وفوحانًا.

(٥)

تمت سنواتي في الغربة فجأة، وأصبح عليّ أن أترك المدينة التي وُلدَت في الصحراء، ووُلدْتُ فيها، إلى مدينة أخرى لم تولد في الصحراء، و لم أُولد بها، وأترك المدرسة التي زرعتْ نفسي، إلى كلية لم أعرف كيف أبذر بذرتها الأولى.

تركت كل شيء يخصني، ورفضت أن أحمل معي أيًا من أغراضي التي أحبـــها، كتبي وأشرطتي وشهاداتي وثيابي، بل وصندوق رانيا الصغير أيضًا.

جمعت كل شيء في حقيبة واحدة كبيرة؛ قصاصات الأوراق التي كنت أكتبها، مذكراتي ولوحاتي التي صرفت فيها أوقاتًا كثيرة، كنت أشعر أنني إن أخذت معي هذه الأشياء، إنما أنزع نفسي من هذا المكان الذي لا أعرف سواه.

تركت كل شيء؛ ليظل لي في المكان أثر ينادي عليّ إذا ابتعدت، آثارنا هي التي تنادينا حين نبتعد، هي التي تسأل عنا، لتخبرنا أن شيئًا جميلاً لنا هناك، تقـــول: كـــن خليقًا به، وعد سريعا لأجله.

رغم أن إحساس الغربة لم يفارقني طيلة وجودي هنا، إلا أنـــه تحـــوّل الآن إلى إحساس غريب، إحساس بانتماءٍ ما، انتماء إلى مكان لا يشبهني في شيء.

يعتبر أبي سفري هذا علامة الأمل له بالعودة إلى مدينته، يخبر أمي أن الرحلة التي بدأها قد انتهت، وأن أيام الغربة التي أطعمها عمره، لم يعد فيها الكثير، يفرح أن بعضه يعود إلى حيثُ خرج هو، وفي عودة الجزء عودة الكل.

كنت أرى في تمام رحلته اقتلاع جذوري الصغيرة التي لم تكد تتحسس الأرض حولها، وفي عودته إلى أرضه، غرسًا لها في أرض جديدة لا تعرفها.

لم نختر نحن أي أرض ننبت فيها، ربما سهل على البذرة أن تنبت في مكان ما أول مرة، تأخذ شكله وتتكيف عليه، وحين تجرب انتزاعها لتغرسها في مكان جديد، قد تخونك ولا تثبت، أو تضعف وتموت.

حين تتذوق طعامًا جديدًا لأول مرة، فإن هذا المذاق -حتى ولو لم يكن هو المذاق الصحيح- سيظل في نفسك المذاق الذي تقيس عليه بعد ذلك، وحين يصادفك نفس الجنس بصنعة أكثر إتقانا وجودة، ويخالف الهيئة التي تعلّمها لسانك أول مرة، فإنك لابد ستصفه بأنه سيء.

أسأل أمي كيف استطاعت تحمّل كل هذا القدر من الاختلاف والغرابة حين جاءت هنا أول مرة.

تجيبني أن في الأيام سرًا عظيمًا، هو أنها تمر، ومهما كان ما تحمله، فإن مرورها يجعلك تنتظر دومًا دون قنوط، وتجيبني أن في النفس سرًا آخر عظيمًا، هو أنها تعتاد، وأن الكلمة من نفسك حين لا تجد حقيقة تجسدها، فإنها تبحث عن هذه الحقيقة فيما تتوهمه مما حولها من أشياء.

تقول: فحين فقدت محبة أبي وأمي وإخوتي، جعلت ذلك كله فيك ثم في إخوتك بعد ذلك، وحين فقدت صندوق ذكرياتي، بدأتُ تقويمي من جديد، وجعلت اليوم

الذي يمر صندوقًا وحده، حتى لو كانت أحداثه قليلة، لا يمكننا أن نحيا دون ذكريات، لولا التاريخ لما كان للإنسانية الحياة التي تراها.

تصر أمي على صحبتي، لا ترغب في أن أسافر وحدي.

تقول لي: لا أعلم ماذا سأفعل بعد أن تسافر، حين أفقد صندوقي للمرة الثانيـــة، لقد جعلتُ كل معاني كلماتي الناقصة فيك، حين تغيب أنت الآن، تغيب لغتي كلها، قد يسهل على الأم غياب ولدها مهما كانت محبتها له، حين لا يحمل من قاموسها إلا أنه ولدها، أما حين يحمل أكثر من ذلك، حين يكون اختصار حياتها، فغيابه غيـــاب الحياة كلها.

تتم المرأة حين تصبح أما، هذا صحيح، لكنها كانت قبل هذا التمام ولو شـــيئا ناقصا، ويمكن لها أن تبقى دون هذا التمام ولو شيئا ناقصا، غير أنها لا يمكن أن تكون لا شيء مطلقا.

* * * * *

يمكنني أن أتخيل كيف مرت هذه الأيام مع أبي؛ لأنه كان مشغولاً دائمًا، أو لعله وجد في هذا الانشغال الدائم، ما يصرفه عن التفكير في أمر الغربة التي يعيشها، كـــان كلاهما قد أصبحت في نفسه كلمات لا تستخدم بمعانيها التي تعلّمها.

كيف كان يستخدم أبي كلمة كأخي وبيتي ومدرستي، ولم يبق من تلك الأشياء إلا الصور الباهتة في نفسه، كيف سأستخدم أنا أيضا هذه الكلمات حين لا يبقى منها إلا مثل تلك الصور؟

أتذكر حزن أمي حين توفي جدي، وأسأل نفسي لماذا حزِنَت كل هذا الحـــزن، رغم أن وفاته لم تحقق لها بُعدًا جديدًا عنه، إنها تحيا في الحقيقة بعيدة عنه، قد تمر سنتان وأكثر دون أن تراه، هو ذاته الغياب، الذين نتركهم بالسفر كالذين نتركهم بـــالموت، يحزنون وتستمر حياتهم، يعتادون أشخاصًا آخرين ليحزنوا مجددًا حين يرحلون.

في دفتري الذي يكتب لي فيه زملائي، أجد عبارة كثيرة تكررت مع الجميع، وإن اختلفت الطريقة التي عبّروا بها، "آمل ألا تنساني سريعا".

في الحقيقة، لم أكن أستطيع أن أجيب: بأنني سأفعل، لا يمكنني أن أعد أحدًا بألا أنساه أو بألا أكف عن الكتابة له أو التفكير فيه، الشيء الوحيد الذي يمكـــنني فعلـــه بيقين، هو أن أقسم لأي أحد عرفته أنه باقٍ في نفسي أثرًا، وإن يغب ذِكرا، يكفيه أن تخبره الدنيا أن كلمة ما لم أكن لأقولها لولا هذا الأثر الذي بقي في نفسي منـــه، قـــد تغيب الأشخاص عنا، لكن آثارهم باقية دومًا، تحكي حكايتهم في سلوكنا، البراعة التي لنا، هي أن تتحول كل هذه الآثار إلى عمل واحد متجانس حي، كالحجارة التي تقوم عليها الجدران، منها الكبير والصغير والحاد والمكسور، ثم هي في النهاية جدار واحـــد قوي.

خبل

(١)

حين تولد غريبًا في بلد، فإن غربتك تصحبك أينما رحلت، لا يمحوها عنك العودة حيثُ يدونون لك وطنك، ولا البقاء حيثُ تدون وهماً وطنا ليس لك.

لم يكن واضحا لي إلى أين سأذهب، يقول أبي إنها مدينتنا، هذه الكلمة التي لم أستطع صنع معنى لها، خلال كل السنوات التي مرت في إدراكي. ضمير النسب فيها كان دومًا موطن ضباب في نفسي. في دروس الإنشاء، أكتب أن (مدينتنا) التي نمت من العدم في الصحراء والتي كانت فصارت، وفي دروس الجغرافيا أجيب عن امتياز مدينتنا بموقعها ومواردها وأهميتها الدينية والثقافية، وفي دفتر الهوية الذي يحمله أبي، أجد أننا عابرون على (مدينتنا)، وأن الضمير فيها لا يعود علينا.

وإذا سألت أبي عن (مدينتنا)، ما هي؟ يجيب: "إنها المدينة التي ولد فيها أبوك".

- لأي شيء تصبح المدينة التي ولد فيها أبي مدينتي؟

- لأن فيها جدك.

- لكنني أنا هنا!

وإذا سألته:لِمَ ترك (مدينتنا)؟ يجيبني: أنه تركها لأجلنا.

– نحن الذين لا نعرفها.

******

كان لزامًا أن تكون لي مدينة أقول إنها (مدينتنا)، أتكلم عنها بين زملائي، أحكي لهم عنها، أهرب إلى شوارعها، أبحث فيها عن شيء ينقصني، عن شيء يتمنى، ورغم أن صفة الوطن لم يكن لها موقع في نفسي حينها، إلا أن الأمان الذي أحسّه وأنا أحكي عن (مدينتنا) يشبه الأمان الذي يحسه الطفل الذي يمسك يد أخيه الكبير، وهو يعبر طريقًا لا يعرفه.

صنعنا نحن الصغار المشتركون في ذات الصفة من ضياع الضمير في (مدينتنا) وطنًا خيالا من قصاصات الحكايات التي نحملها من إجازاتنا القصيرة، أوطاننا التي صنعناها كانت جميلة خضراء، ليست كتلك الصحراء التي نحن فيها، خلعنا عليها كل صفة جميلة، الناس في بلادي أهدأ، والجو في بلادي أرق، والفتيات في بلادي أجمل، ونَمت لنا لهجة واحدة، هي مزيج من كل لهجاتنا، كانت كفيلة لتصنع الفارق الذي يحفظنا عمن حولنا. نفقد هذه اللهجة بعد كل إجازة صيف، إذا افترقنا، وسرعان ما تعود لهجتنا الوليدة حين نعود محملين بصور جديدة، تزيد على خيال أوطاننا خيالات جديدة.

راجعت كل الصور التي رسمتها لهذا الوطن، حين بدت عودتي إليه قريبة، فرحتي بشهادتي عكّرها الخوف من اختبار تلك الصور.

أن تختبر خيالاً صنعته أنت على غير بيّنة، كأن تتخيل نفسك طائرًا من نافذة، فتجرب الطيران، فتسقط، تبدو الخيالات منطقية هادئة، لكنها حين تخضع لاختبارات الحياة، تتجرّد من منطقها هذا، ليحيط بها منطق الوجود الحقيقي فتفشل أمامه.

* * * * *

بدا كل شيء واسعًا، كثياب فضفاضة تغمرني فجأة، كأن جدران الحياة التي تسترني تتباعد، وينقطع ما يربطني بها، لتتركني وحيدًا أرقب ابتعادها.

ومع ابتعادها، يُولد خوف جديد في نفسي، خوف الذي ضل طريقه في فضاء واسع، بعيدًا عن كل معنى يعرفه للحياة.

حتى لغتي فارقتني، كنت أعجز عن صياغة أي معنى أريده، حين تخونك لغتك، يخونك عقلك، إننا لا نتعامل مع عقولنا إلا بهذه اللغة التي تحملنا، لغتي كان ارتباطها بالمكان أكبر من ارتباطها بي، لم تتحمل انتزاعها فجأة فتهاوت لأبقى وحيدًا.

أدرك الآن بعد هذه السنين أن الوِحدة الحقيقية حين تخونك هذه اللغة، حين تقف عاجزًا عن إيجاد لفظ ما، يشرح لك شيئًا لا تفهمه. إنك حين تعجز عن التعبير عن دفء الجو، أو تلون الشفق، فإنك تقتل الحياة في هذا الدفء وفي ألوان السماء، وحين تعجز عن التعبير لنفسك، عما يدور بخاطرك، فإنك تعلن توقفك عن الحياة.

إن حبًا لا تستطيع أن تعبّر عنه الكلمات، حب خديج ناقص لا يتحمل البقاء.

جربت الحياة منفردًا دون أصدقاء إلا اللغة و لم أفشل، لم أشعر بالفراغ، وكنت قادرًا على أن أصنع حياة ولو ناقصة، لكنني حين تركتني لغتي، أصبحت أسيرُ كالأجرام الهائمة بلا مجرات، كل شيء حولها هو قوة تدفعها، حتى تتحطم أو تغرق في بحار الفضاء السوداء.

إننا نتزوج بكلمة، بل ونؤمن بكلمة، وحين نُذنب، مهما أذنبنا فإن الاستغفار لم يزل كلمة.

بغير الكلمة لم تكن لتخلق الحياة.

وبغياب الكلمة لا يمكن لها أن تستمر.

* * * * *

(٢)

ليست المنصورة مدينة مخيفة حين رأيتها المرة الأولى، بل على العكس، كانت حنونًا جدًا، نهرها الذي يقطعها من أولها لآخرها هو أول يد مسحت عني خوفي، كانت كالذي يقول لي إن مدينة تمسك يدُها يدَ نهرٍ كبير، لا يمكن أن تضيع فيها، وأنت الذي عاينت المدن التي تتخبأ من الصحراء في ظلال الجبال.

الأنهار تصنع المدن، هي التي تختار أماكنها وتحكم مبانيها، وتقسّم شوارعها وتحدد حِرَف سكانها ووظائفهم، والمنصورة من تلك المدن التي حكمها النهر الذي يمسكها، شوارعها توازيه أو تنتهي إليه، بناياتها كلها تتطاول لتراه، شرفاتها الكبيرة ونوافذها الواسعة وواجهاتها الفخمة، صُنعت لتليق بالنهر العظيم الذي وهبها الحياة.

مُلاك الأراضي التي تقع في زمامها، ومديروا أعمالهم كانوا كبار سكانها، وأثرياء العاصمة الذين رأوا فيها جزيرة وردٍ، بعيدة عن صخب الحياة، ثم موظفوا الدولة وجاليات فرنسية ويونانية، كان ذلك قبل أن تختلط الحياة وتقسم الأرض وتضيع الفوارق الطبيعة بين الحياة، ليشغل مكانها فوارق جديدة أكثر جفاء وقسوة.

هذه القسوة هي التي صنعت البقية من تلك المدينة، أحياؤها الجديدة البعيدة عن النهر، مبانيها الضيقة الطويلة كشواهد القبور، نوافذها الصغيرة وشرفاتها التي تحوّلت

إلى امتداد لغرف ضيقة، سكانها الذين هم خليط من الموظفين والعائدين بثروات واهية من الصحراء، لم تسعفهم ليتموا كساء جدرانها أو طلاء بواباتها ونوافذها، فجاءت مسوخ بيوتٍ، تحمل في صورتها عبء السنوات التي بنتها.

* * * * *

نمت علاقتي بالمدينة سريعًا، البياض الذي يلفها كل صباح يجعلني أشعر أن بابًا من الجنة مفتوح على هذه المدينة، الشوارع الخالية دائمًا في ذلك الوقت، تشعرني أنها مدينة لم تُبن إلا ليسكنها الجمال، الحدائق المحيطة بالقصور الباقية في حي توريل القديم حيث أسكن، بشوارعه المتوازية وصمته الملكي إلا من غناء الطيور المتعلقة في أشجاره، كأنها حدائق حب أتخيلها وقد جمعت كل زوجين تحابا في هذه المدينة الجميلة.

أسير مع نهرها إلى الجسر الذي يعبر عليه القطار، أجتازه إلى منتصفه وأقف أرقبها وهي تصحو.

مدرسة البنات الثانوية التي تواجه النهر، بنوافذها العالية المتجاورة وأصوات الفتيات تهبها الحياة بعد صمت، الطريق العائد إلى مبنى المحافظة والسيارات تكثر فيه، الضباب وهو يرتفع بعد أن غسلها ليسلمها إلى يومها الجديد.

* * * * *

تزدحم المدينة حين ينتصف النهار ليشاركني فيها أناس هم أول إحساسي بالغربة معها.

سيارات النقل العام -المكتظة دائمًا- وأصوات "تبّاعيها" وهم ينادون على كل أحياء المنصورة، سيارات الأجرة التي يختار سائقوها زبائنهم، فيفرون سريعا إن سمعوا

مكانًا بعيدًا، أو جهة لا يحبون السير فيها، محلات الفول التي تمتلئ بالواقفين، يتأملون صورهم المنعكسة على المرايا التي تملأ جدرانها وهم يأكلون، عصّارات القصب وعربات الفاكهة والخضار المنتشرة في مداخل الأسواق، الموظفات البدينات اللائي يملأن الشوارع وقت الظهر، يهرعن إلى أي سيارة أجرة تريد أن تقف.

يظهر وجه آخر للمنصورة إذا نزل إليها الناس، يقتحمون صداقتي الجديدة بها، يفسدون الصور التي أرسمها معها، لا يشبهني فيمن حولي أحد، حتى الهموم التي يتحدثون فيها كل يوم، لم تكن تترك في نفسي أثرًا، كانت لي همومي التي لا يُدركها أحد ممن حولي أيضًا، وإن جربت وتحدثت فيها، أجد ابتسامات صامتة في وجوه الذين أحكي لهم.

قال لي مرة أحد أقاربي إن رؤيتك ستتغير حينما تتغير عينك التي ترى بها، إن عين السائح التي تحملها سرعان ما ترمضها الحياة لترى الدنيا كما يراها الناس هنا.

حديثه أخبرني أن غربتي التي أحملها في حقيبتي، لن تتركني سريعًا، وأنه لا يكفي أن يكون لك في مدينة سطر طويل من أقارب تربطهم بك صلة دم، حتى تكتب لك كلمة الانتماء إليها، وأنه مهما اتصلت صداقتك بها، فإن المدن لا تقبل الغرباء بسهولة، لا يمكن لمدينة أن تقبلك إلا إن صنعتك هي، إن أعملتْ يدها فيك، إن أخذتْ منك، أو إن أعطيتها أنت –عن رضا– شيئًا كبيرًا، كحياتك مثلاً.

كنت أتخير من المطاعمِ، المطاعمُ التي أجد لها أشباها هناك في المدينة البعيدة، تلك وحدها هي الأماكن التي أشعر فيها براحة كبيرة، نفس الأسماء والألوان وحتى الروائح التي تملؤها تشبه الروائح التي كانت هناك.

بدأت لغتي مولدها الجديد هناك.

في تلك المطاعم، حبَت تتعرف أسماء الأشياء حولها.

نهر..

مطر..

مدينة..

(٣)

بعض الأصوات تمر علينا كسحابة ظلٍ، لا يترك أثرًا، وبعضها كأنه سحابة مطر تجيء بالبشرى وترحل بالخير، بعضها يضيء كفجر وليد، أو يضيء كشمس ساطعة، بعضها يمد يدًا كأنها تدعوك لترقص أو تهدهدك فتنام.

كأنما تصنع الأصوات حياتنا، تبني هياكلها وتشد أجزاءها بعضًا إلى بعض، وعلى قدر تجانس هذه الأصوات، يتجانس الهيكل ويتزن البناء.

كان صوتها من تلك الأصوات التي تصنع الأيام المتجانسة، الصوت الذي يرَكِّب لك أجزاءك المتفرقة، حتى كأنها جلدة السماء لا عوج فيها ولا شذوذ، ليس هـــدوؤه والرنة العميقة التي فيه، هي ما لفت أذني إليه، ولا الأنوثة الرقيقة التي تتحدّر منه عفوية صافية، كأنها تقبل الأذن حين تطرقها، إنما شيء آخر أقرب من ذلك كله.

لم يكن هذا الصوت يتكلم لهجة تشبه لهجة الناس هنا، أدركته رغـــم امـــتلاء المدرج بالأصوات الكثيرة في الدقائق التي تسبق دخول المحاضر، لهجة أردنية خالصة، لا تعرف أي شيء ولّد تلك اللهجة المركبة، لا هي بالقاسية قسوة لهجـــة العـــراق، ولا باللينة لين لهجة سوريا، كأنها نسيم روضة ونسيم جبل.

كان الصوت خلفي بدرجتين، انفصلت أذني عن كل ما حولي مـــن أصـــوات، وبقي صوتها وحده صافيًا، وهي تحدّث زميلة إلى جوارها، تسألها من أين هي؟

"أنا أردنية، أردنية فلسطينية، أبي من نابلس وأمي من عَمان، ولدت في الرياض وبقيت هناك حتى أتممت المدرسة وجئت أدرس هنا"

ما شعورك حين تدعى لعُرْس لا تعرف فيه أحدًا، فتظل متشاغلا بساعتك وهاتفك عمن حولك، حتى ترى شخصًا تظن أنك تعرفه، فتخف إليه ويتسع حولك الكون الذي كان من لحظة كأنه صندوق ميت؟ إلا كشعوري حين مسّني من ضجيج المدرج هذا الصوت.

كان اليوم الذي يمر علي يزيد جدارًا يحجزني عما حولي.

و لم أكن قادرًا على تخطي هذه الجدران وحدي، جربت و لم أفلح، لعلي كنت أرفض ذلك في داخلي، لكن يدًا واحدة كانت كافية لتجعلني أجرّب ذلك وأنا أشعر بأمان، ربما سهل علينا تعلم أشياء كثيرة وحدنا دون مساعدة، لكن الأبجديات لا يمكننا تعلمها منفردين، لأجل ذلك فرحت حين وجدت (ميس).

كانت الشريك الذي يمكنني معه فتح فجوة في هذه الجدران، اتصلت صداقتنا أسرع مما قدّرت، كان أكبر شبه جمعنا هو غربتنا عما حولنا، لا يهم أن تكتسب هوية المكان الذي أنت فيه، ليزول انتفاء الغربة عنك، عرفت منها أن أباها اختار لها مصر، لأنه درس هنا منذ عشرين سنة، وأنه يعرف شوارع القاهرة كلها، وأنها زارت معه مصر أكثر من مرة وهي صغيرة.

معرفتي لميس كانت الحدث الأكبر الذي غيّر اتصالي بالمدينة من حولي، أصحبُها في الشوارع التي تعرفت عليها حديثًا، أحدثها عنها بما أعرفه، نتردد على المطاعم التي أحبها، كانت ترى الأشياء كما أراها، تعليقاتها على الأشياء حولنا كأنها تقرؤها من عقلي.

في قوانين الطبيعة حيثما وجدت شيئا فثم شبيهه قريبًا منه، حين ترى نملة فهناك نمل، وحين ترى عصفورًا فقريبا منه عصافير كثيرة، نقطة الغبار لا تقف وحدها على الجدار، إذ سريعًا ما يتجمّع حولها غبار كثير، ومهما اختلفت الأشياء المتشابهة فيما بينها، مهما تشاجر الحمام، فإنه لا يساكن النسور أبدًا، هذه الجاذبية يقوم قانونها على الدم أول ما يقوم، ثم يحل بعد ذلك في العقل، فالأجناس المتشابهة تميل إلى الحياة معًا، والذين يدينون بدين واحد أو يمتهنون مهنة واحدة يكونون دائما معًا.

تتغير الأشياء كثيرًا حين يراها معنا سوانا.

يتغيّر العالم كله حين يشاركنا أحد الوقوف على ضفته، حين يشاركنا أحد إمساك الفرشاة والضرب بها على سمائه.

تتغيّر الألحان حين تعزفها يدان على لوحة واحدة.

لتولد منها مفردات جديدة. .. أنس.. لحن .. أمان.

(٤)

تلك الضجة كافية لنقوم جميعًا إلى نافذة المدرج.

كأنما شقت الأرض فجأة وأخرجت كل هؤلاء، آلاف الطلبة يتجمعون في صفوف، يرفعون لافتات لم تكن واضحة لي وأنا في مكاني.

أثارَ صوتهم رعبًا كبيرًا في نفسي، لا أدري لماذا شعرت بالخوف الشديد، حين ارتفع الصوت فجأة بالهتاف، كان الصوت قويًا هادرًا كأنها أمواج غاضبة.

منعني الخوف في البداية من تبين ما يقولون، لكن اعتياد الصوت خفف ذلك فبدت هتافاتهم واضحة:

" يا فلسطين يا فلسطين.. مش ساكتين مش ساكتين..

يا فلسطين يا حزينة.. بعدك مكة والمدينة..

في سبيل الله قمنا نبتغي رفع اللواء، لا لدنيا قد عملنا نحن للدين الفداء"

كانت تلك أول مظاهرة أراها عيانًا في حياتي، لم أكن أتخيل ذات يوم أن يمر أمامي آلافُ متظاهرون، هناك في المدينة الصامتة أبدًا لم نكن نعرف هذا الأمر، كان كل شيء معلبًا حتى الغضب.

جذبت المظاهرة الكثيرين من الواقفين على الجانبين، كانت تكبر كلما ابتعدت عنا، فيظل صوتها قويًا واضحًا، لم أكن متابعًا للأخبار و لم أعرف أي حدث جديد استدعى هذه المظاهرة، في فلسطين يهود منذ سنوات، بل لم تُضَف فلسطين في قاموس

لغتي إلا ومعها مرادفاتها من المذابح والحق الضائع واللاجئين، وكأن تمام معنى فلسطين هو اجتماع هذه الألفاظ كلها!

سألت أحد زملائي: ما هذا؟
قال إنها مظاهرة لطلاب التيار الإسلامي.
سألته إن كان قد حدث شيء جديد يستحق ذلك.

فقال إنه لا يعرف، لكن مثل هذا يتكرر كثيرًا، ونصحني ألا ألتفت إليهم، وأن أحرص على الابتعاد عنهم، بل وحذرني من صلاة الظهر بمسجد الكلية؛ لأنه المكان الذي يكثرون فيه، وأخذ يحكي عن أقارب له، وأصدقاء سبق واقتربوا منهم، فضاع مستقبلهم جميعا كما قال.

لم أسأله من هم هؤلاء الطلبة؛ لأن ذلك الخوف المبهم الذي ملأني حين بدأت المظاهرة، كان قد عاد أكبر مما كان، ذات الصورة التي ما فتئت تتردد علي، الدنيا الصغيرة التي أتكِئ على جدرانها، ثم تبتعد فجأة، وأبقى وحدي بغير رباط.

أسئلة كثيرة تركتها لي هذه المظاهرة.
لماذا هي؟
لماذا خفت منها؟
ولماذا لم أشعر بشيء وهم يتحدثون بهذا الاحتراق؟

* * * * *

تكررت تلك المظاهرات بعد ذلك مرات كثيرة، كنت قريبًا منها، أتابعها بشغف وانبهار، نما في نفسي إحساس قوي بالجمال، اللحظات التي تسبق تكوّنها، تبدو كاللحظات التي كنت أتخيّلها لميلاد النجوم الكبيرة، العبثية والهرج اللذان يتحولان في

لحظات صغيرة إلى كتلة واحدة منتظمة، أحب مراقبتها من الطوابق العليا والطرق تقذف بهم إلى الساحة الكبيرة، الطرق التي تنتهي بمساجد الكليات كانت أكثر انتظاما وهي تقدّم طلابها، يبدأ الهتاف قبل أن يبدأ المسير، يخرج الصوت قويا عميقا فيتبعه صوت ممتلئ هادر، لو كان لميلاد النجوم صوت مسموع، لكان أشبه بذلك الصوت، لم تعد رهبتي منه كما كانت، أصبحت أرهف سمعي كثيرًا له، كان صوتهم هو ما يتم لي الصورة الجميلة التي وجدتها.

لم أفكر مرة في تجربة ذلك معهم، تتم متعتي بالمراقبة وحدها، يكفي أن أسمع الجلبة التي تعقب صلاة الظهر في المسجد، حتى أعرف أن شيئًا ما سيتم، لأصعد سريعًا وأراقبها.

مهما طالت مدة المظاهرة، فلم أكن أملّ الوقوف والمتابعة، كان كل شيء فيها منظمًا بعناية حتى ليمكنني عدهم مهما كانوا كثيرين، الطلاب يشغلون الساحة الأمامية، ثم الطالبات بعد ذلك، وعلى جانبي النهر لافتات كبيرة تمنع المظاهرة من الانفراط على جانبي الطريق، حتى مكبرات الصوت كانت توزّع بطول المظاهرة بانتظام، يتناوب على حملها طالبان أو أكثر، ثم هناك طلبة يتحركون بحرية بين الناس يقوّمون أي اعوجاج في الصفوف كأنها صفوف الصلاة، وطلبة آخرون يحملون صناديق يمرون بين الطلبة يجمعون فيها التبرعات، وتنتهي المظاهرة بمؤتمر كبير يتكلم فيه خطباء من الطلبة أو من المدرسين أو يتصلون بأحد الشخصيات الكبيرة — في حماس مثلا- حسب الحاجة التي من أجلها انطلقت المظاهرة.

كانت التعليقات التي أسمعها من الطلبة أو من هيئة التدريس كثيرة متنوعة، فبين أدعية صامتة بالنصر وعبارات استنكار أو ادعاءات بعبثية العمل والانشغال به عن أشياء أكثر عملية وأهمية.

يقول أستاذ حين وصل إلينا صوت مظاهرة ونحن في محاضرته: إن الذين يحركون هؤلاء الطلبة أولى بهم أن يدفعوهم دفعا للدراسة والتعلم، بدلا من إهدار أوقاتهم في أعمال تنتهي كما بدأت دون نتيجة إلا الأذى المترتب عليهم منها، يتكلم أن العلم هو الصوت الوحيد الذي يسمعه كل العالم، هو الذي يمنح الضعفاء قوة يمكن أن تدافع عنهم، وما سوى ذلك يعد صراخًا في الصحراء.

يسألنا آخر لماذا لا تشاركون زملاءكم ما يفعلون، يقول حتى لو كان العقل يقتضي الانصراف عنها فالشباب لا يتحركون إلا عن عاطفة وحماس، لا عن عقل موزون، وانصرافكم لا يعني تحليكم بالعقل قدر ما يعني خلوكم من العاطفة والحماسة، وكلاهما علامة خطر لا علامة سلامة.

(٥)

كأن نفسًا صافية غسلت وجهها فأضاء، فاستشرفته الملائكة تأنس به، فشاع حوله أنس الضياء وأنس الملائكة وأنس وجهها الجميل.

يُرى الوجه الجميل أول مرة بنور الطبيعة حوله، حتى إذا انعكس نوره على قلب رجل، ارتد إليه، فزاد في إضاءته، فيراه بنور الطبيعة وبنور الوجه المنعكس، وإذا هو يكبر ويكبر وإذا هو جمال حي.

ومن أسرار الوجه الجميل، أن حسنه باقٍ في القلب الذي أضاءه ما بقي هذا القلب منيرًا به، فإذا انطفأ القلب، لم يعد نور الطبيعة قادرًا على الحفاظ على صورة الوجه الجميل، ولو أضاءته ألف شمس ألف سنة كاملة.

حين لا تسعفك مفردات اللغة التي تعلمتها في وصف شيء جميل تراه، يحتال عقلك لاختيار أقرب الألفاظ إليك، فهو يرى أين وقع الشيء الذي رأيته في نفسك، ثم يبحث أي الألفاظ تستخدمها في وصف ما ينبه هذا الجزء في العادة، وعلى قدر براعته في الصياغة والتركيب، تكون الصور اللغوية التي يُنشئها أقرب لوصف ذلك الجميل.

قد ترى الوجه الجميل، ولا تصفه إلا بمفردات الضياء وحدها، فلو خلق النور إنسانة لما كانت إلا هي.

وقد ترى الوجه الجميل، فلا تصفه إلا بمفردات الألحان وحدها، فهي النغمة الهادئة في أول اللحن تسحبك برقة إليه.

وقد ترى الوجه الجميل، فلا تصفه إلا بمفردات الطبيعة وحدها، فهي الزهرة وهي العطر وهي الشمس والقمر.

وقد ترى الوجه الجميل، فتشعر أنه أكبر مما سبق، فتصفه بصفات الجمال الذي لا تدركه فهي الجنة الكاملة.

وقد ترى الوجه الجميل، فلا تصفه إلا بكلمة واحدة، "وددت لو أنكِ أنتِ أنا".

في كل ما سبق، أنت تصف الجمال بموقعه في عقلك، وفي هذه العبارة وحدها، أنت تصفه بموقعه من نفسك.

حين يمس الجمال نفسك، وترتعش به، تتمنى أن تتماهى فيه.

أن تصبح جزءًا منه.

وأن تكتمل به.

"وددت لو أنك أنتِ أنا".

كانت هذه هي العبارة التي وجدتها في نفسي حين رأيت وجه ليلى، مستطيل صاف كلون الشهد إذا انعكست فيه الشمس، عيناها بنيتان فيهما سكينة ودفء، وأنفها مستقيم متناسب، كأنه الجوهرة الفريدة في التاج الملكي، وشعرها بُني إلى احمرار يتناثر على جبينها العريض كأنه صفحة القمر.

إذا كانت بعض النساء توقظن في الرجل رجولة مجردة، فإن بعضهن يأتين كالعطر الناعم الذي يرغمك أن تملأ به صدرك ببطء، فتنتشر في كل ركن من نفسك كما ينتشر العطر، وتتمنى لو طال نفَسك أو اتسع صدرك؛ حتى يسع أكثر، وقد كانت ليلى

من هذا النوع الهادئ، الذي تعرف معه معنى أن تتذوق السكر حلوًا حين يذوب دون أن تتعجله، فتكسره.

لقاؤنا الأول كان عابرًا، تخطئ العين الجمال الصامت في أول رؤية له، تتجاوزه ما لم يلفتها إليه شيء، لكنها حين تدركه، تقف طويلاً أمامه لا تفارقه، تبحث فيه عن سره الصامت، وهو ما حدث إذ التقينا في غرفة الانتظار قبل دخولنا إحدى لجان امتحان شفهي، وعرفني عليها صديق كان يقف معي.

لم يزد تعريفه عن هذه العبارة الصغيرة وحدها، "ليلى، زميلتنا، كانت تدرس معي في نفس مجموعة الدروس التي كنت أذهب إليها".

بهذا التعريف، أصبحت أرى ليلى كثيرًا بعد ذلك، لا يكفي وجود إنسان قريبًا منك لتراه، كانت ليلى معي في نفس المجموعة، إذ أن اسمها واسمي تقترب أحرفهما الأولى، ومع ذلك لم أرها إلا ذلك اليوم.

أحييها إذ التقينا على باب مدرج أو معمل أو مكتبة، نتحدث أحاديث صغيرة لا معالم فيها، أحاديث الجو والدراسة والامتحانات ولا شيء أكثر.

كانت على الدوام تصحب معها كتابا تتصفحه ما دامت لا تفعل شيئا. وحين تشاركنا إبداء الرأي في أمر مطروح فإن آرائها حتى التي تخالف فيها الرأي الراجح بيننا تخرج مرتبة موزونة.

استطعت أن أميز في نفسي اهتماما خاصا بما تفعله ليلى. متى تصل إلى المحاضرة، من يصحبها من زميلاتها. أين تقف وفي أي المواضيع تحب أن تتحدث. أي عطر و أي نوع من الكتب تصحبه كثيرا.

تقول إنه لا أحد من الذين يكتبون القصة القصيرة يعجبها كما يعجبها يوسف إدريس. وأن أحدا لم يستطع أن يختصر المشاعر الإنسانية في جمل رياضية كما فعل توفيق الحكيم.

في مسرحيته "سليمان الحكيم" لم يستطع الملك سليمان وهو الرجل الذي لا تخطئه عينٌ مُلكا ونبوة أن يلفت إنتباه امرأة عاشقة.

إننا قد نستطيع أن نبهر العيون ونحوز إعجاب النفوس لكنه من العسير أن نملأ القلوب التي شغلت بغيرنا.

(٦)

عند مديرية الأمن القديمة، يبدأ سيري عادة مع ميس في المدينة التي لا يعرفها منا أحد، تسكن هي خلفها، وأقيم أنا في بيتنا في حي توريل القديم.

كانت المديرية قصرًا لمحمد الشناوي قبل أن يؤول إلى مديرية الأمن، يشغل ناصية الطريق بقبتيه اللتين تظهران بين أشجاره الكثيفة، كأنهما معلقتان عليها، وحين تكون قريبًا إلى سوره، يظهر لك ركنه وقد تحول إلى موقف لسيارات الشرطة، وعلى بـــاب صغير في جانبه لافتة مكافحة المخدرات كأنه لم يكن يومًا قصرًا، يختلط فيه الـــضوء والعزف وبهجة الدنيا.

نسير متجاوزين مبنى المحافظة إلى أول المختلط، الذي يمتد حتى مزلقان القطـــار، تجتمع في الشارع بنايات قديمة تجعله أشبه بشوارع المدن القديمة في المسلسلات.

تبدأ بالمدرسة المسيحية في أوله بجدرانها المصمتة، ونوافذها التي لا تفتح كأنه لم يعد أحد يرتاد هذا المكان، ومبنى هيئة المساحة ثم عمارة الشناوي الكبيرة، ومحكمة الاستئناف التي كانت المحكمة المختلطة، ومدرسة البنات الثانوية ذات النوافذ الكثيرة العالية، ورغم أن الفترة الزمنية التي شهدت ميلاد هذه الأبنية متقاربة، إلا أنها جميعها تختلف في طرزها المعمارية التي قامت عليها.

تقول ميس إن المباني القديمة حولنا لا يجمعها طراز معماري واحد، إنجليزية وفرنسية ويونانية، حتى الأبنية تبدو غريبة هنا، ليست ثقافة واحدة هي التي بنت هذه المدينة.

قالت إنه لا يمكننا أن نحب هذه الأشياء ولو كانت جميلة، لأنها علامة أن هذه الأرض كان يملكها أناس ليسوا من أهلها، حتى المباني العظيمة التي بنوها هنا لم تكن لأهلها، لم يكن الجسر المعدني الذي يربط المنصورة بطلخا، وتحمل لوحته تاريخًا من أربعينيات القرن، أو محطة القطار الصغيرة هناك، والتي تحمل تاريخا من ثلاثينياته حبا لأهل هذه المدينة، إنما كان خدمة لمصلحة لهم، لو أمكنهم أن يسجنوا الفلاحين في قراهم لفعلوا، لكن التجارة التي تدرها عليهم أراضي أولئك الفلاحين، لا يمكن سجنها معهم.

تتحدث بحماس كأنها في محاضرة حين تلمح إعجابي بهذا المكان، قلت لها إنني حتى لا أجد حرجا من اسم الشارع الذي يعود للمحكمة المختلطة التي كانت تفصل فيما بين المصريين والإنجليز؛ لأنه لا يجوز مقاضاة الإنجليز أمام المحاكم العادية، لقد آل ذلك كله إلى زوال، وبقيت هذه المباني، كما بقيت الأهرام ولم يبحث أحد في أجور العمال الذين بنوها، وكما بقيت مساجد المماليك والفاطميين ولم يسأل أحد عن بيوت الفقراء الكثيرة التي هُدمت لتشيد مكانها تلك المساجد، ولا إن كانوا قد عوضوا عنها أم لا.

قالت: وما قيمة بيوت الله حين تبنى على بيوت البشر المهدومة؟

– "ليست للمسجد وقتها قيمته التعبدية في الحقيقة، إنما قيمته تاريخية، قيمة دعائية، إن الأمم التي تتميز بهيئة أبنيتها، تصنع حياة خالدة من الصخر في أروقة التاريخ، البشر هم من يرحلون، يموت الظالم كما يموت المظلوم الذي يموت معه ظلمه الذي عاناه ولا يبقى لنا منه أثر، لكن هذه البنايات باقية تحكي الكثير، حتى إن حكت عن هذا الظلم فإنها تحكيه بثيابه الجميلة،

تحكيه دون ألم،"

أطالع النوافذ العالية والشرفات الواسعة وأنا أقول: "إن الذين سكنوا بيوتا بنيت لتشارك الحياة ضوء الشمس، بنوافذها الكبيرة وشرفاتها العالية، لا يمكن أن يكونوا كالذين يعيشون في حجرات ضيقة بعضها فوق بعض.

حين كانت شرفات البيوت كبيرة، كان احتكاك الناس بالحياة أكبر، وكان اهتمامهم بها أكبر أيضا، أما حين ضربت ستائر القطيعة على النوافذ، أظلمت القلوب أيضًا".

نمر أمام محل كبير للتصوير، نقف، نتأمل الوجوه المبثوثة خلف الزجاج، اللوحات التي تتصدر محلات التصوير أول ما يمكنك أن تعرف به مدينة جديدة، العرائس الممتلئات قليلا هن الأكثر هنا، من العسير أن تدرك في تلك اللوحات شيئا مما يدور في أذهان أصحابها، تقنيات التصوير الجديدة جعلت كل الوجوه كأنها تماثيل رخام صاف، القليل منها فقط ما كان يحمل روحا حقيقية تجعلني أطيل الوقوف إليها.

تختلف الوجوه باختلاف أماكن محلات التصوير، أنواع الزينة وبريق العيون وابتهاج الثياب، الطريقة التي يتجاور فيها العروسان، وحتى النظرات التي يحملانها.

صور الأطفال، الحياة المبثوثة وضجيج الطفولة المكتوم في هذه الصور، في الأحياء التي تقترب من النهر تبدو الصور ممتلئة بالحياة أكثر، أما هناك في ظل المدينة، فلم أكن أجد إلا صورًا باهتة تحاكي تلك التي قرب النهر ولا تشبهها.

تُعرف المنصورة في حكايات الناس ونوادرهم أنها المدينة التي لا تلد إلا الوجوه الجميلة، كان ذلك أيضا حين كانت المدينة قاصرة على سكانها وحدهم، في تاريخ المنصورة سكن المماليك والشركس ثم الأتراك والفرنسيون واليونانيون والإيطاليون، تحكي أسماء المدارس والمقاهي وبعض المحلات القديمة حكايات كثيرة عن سكان هذه

المدينة، أثرياؤها المصريون كانوا كثيرا ما يتزوجون من الأتراك لأنهم أهل السلطة، أو الإيطاليون لأنهم أكثر تجار المدينة ثراء.

هدوؤها وبعدها عن ميادين الأحداث هو ما جعلها تحوز هذه الأهمية، أن يجتمع فيها المال والسلامة والبعد عن عبثية الحياة في العاصمة يكفي ليولد فيها هذا الجمال، يميل الجمال للهدوء والرزانة، لا يمكن للجمال أن ينشأ في الحيوات الصاخبة العادية، يُكوّن صورًا حسنة لكنه لا يُكوّن جمالاً تامًا، إنه كالحياة التي هي مادته، لا يمكن أن تكتمل إلا بهدوء، الحياة التي تنمو سريعًا كالخلايا التي تنمو سريعًا، ليست إلا أورامًا غريبة، مهما كانت مسالمة فإن شرًا ما يختبئ فيها.

لم يجتمع في مدينة صغيرة أنواع كثيرة من الوجوه، في العادة، لا يحدث ذلك إلا في العواصم الكبيرة والمدن الساحلية، حيثُ يكثر المهاجرون، ويكون اجتماعهم اجتماعًا غريبًا لا مجانسة فيه، أما في مدينة كالمنصورة فقد كان اجتماعا هادئا منسقا صنع لها تمام اسمها "جزيرة الورد".

* * * * *

(٧)

لا أذكر نابلس، زرتها مرات قليلة في الصيف مع أبي، مرتين أو ثلاثًا، لم يكن الوضع ثائرًا كما هو غالبا، كانت الحياة تسير سيرا يشبه حياة المريض الذي يعلم أنه لا نجاة له من مرضه، يتعايش معه ولا يحرم نفسه متعة الحياة حتى ولو عجلت نهايته، وحده المريض الذي يوقن باقتراب النهاية، وهو وحده الذي يحرص على أن يعيش كل الحياة.

في أول إجازة شهدت عرس منار ابنة خالتي، لم أكن أعرفها ولا أعرف أختها، مع أنني ولدت أنا وأختها في نفس العام، هي في نابلس وأنا في عمّان، ولا أعرف خالتي، لا أعرف مِن أقاربي إلا خالي الذي يعمل معنا في تلك المدينة، لم أرَ سواه وقليلاً من أقاربنا الذين كانوا يزورونا في طريق سفرهم أو عودتهم.

خلال الطريق من عمان إلى الضفة، فكّرت إن كان يمكنني أن أعرف ابنة خالتي دون أن يخبرني عنها أحد، إن كان حنين الدم يستطيع أن يرشدنا إلى ذواتنا، هل سأشعر بشيء غريب إذا عانقت خالتي التي لم أرها قبل ذلك، هل سيبدو حديثها مميزًا في نفسي وهي تقول لي: "كبرت يا ميس، لم أرك منذ كنت طفلة صغيرة".

وجه خالتي يشبه وجه أمي كثيرا، كان عناقهما طويلاً، واختلط بدموع كثيرة ممن حولهما، تقول خالتي: كانت تتمنى أمك أن تراك هنا بيننا، لكن الوقت الذي كان لديها لتنتظره، جاء أقل مما يسمح لها بذلك.

– أريد أن أزور قبرها.

– سيأخذك حازم إلى هناك.

كأنها تريد أن تعتذر لها عن تأخرها الذي لم يكن بطاقتها، الغربة هي التي فعلت ذلك، هي التي أخّرتها هذه المدة وحرمتها أن تجلس إلى طرف سريرها، تحكي لها عن تلك المدينة وما أخذته منها.

– كيف كانت تبدو قبل وفاتها؟ هل تألمت كثيرا؟

– كانت تنادي عليك كلما أفاقت، نذكّرها أنك لست هنا وأن بلادًا بعيدة تحتويك.

فتسألني إن كنتِ سعيدة هناك.

أقول لها: لابد أنها كذلك.

لم تفارق أمي خالتي في المدة التي بقيناها هناك، تصحوان معا، وتبقيان طول الليل تحكيان أحداث كل تلك السنين التي مرت، عمن تزوج ومن أنجب، من سافر ومن حضر، عن أصدقاء طفولتهم وعن زملاء المدرسة، كانت أمي تريد أن تجمع كل السنين التي غادرتها في نفسها، كأن الحكاية تصنع الحياة كما تصنعها المعايشة، تحزن على أحداث مضى عليها زمن، وتفرح لأحداث انقضت وربما جاء بعدها ما يكدرها.

أما أنا فلم أكن أشعر بشيء.

في الأيام الأولى، كنت فرحة بالمدينة الجديدة وبمن حولي، كان فرحهم بلقائنا ينعكس عليّ، أنت ابنة سعاد! لقد أصبحتِ عروسًا، كانت أمك أحلى بنات هذا الحي.

كانت فرحتهم بلقائي فرحةً بلقاء أمي في صورتها يوم غادرتهم، ينظرون إليّ ويتكلمون معها، أمي التي عادت إليهم أكبر بخمس عشرة سنة عن تلك التي رحلت، لكن صورتها في نفوسهم كانت تقف هناك قبل هذه السنين، وهي الصورة التي وجدوها فيّ أنا.

قليلا حتى اعتادوا صورة أمي الجديدة بدأت أشعر بالغربة والملل، أحن إلى بيتنا الصغير، إلى غرفتي التي أقضي فيها أكثر وقتي، وإلى صديقتي نسرين، وأتمنى ذلك اليوم الذي تنتهي فيه إجازتنا ونعود إلى هناك.

جاء عُرْس منار جميلاً، لكنني لم أكن سعيدة، كنت أشعر أني غريبة عمن حولي، أخوالي وخالاتي وبناتهن، اشتركت معهن في كل ترتيبات العرس، لكنني كنت أشعر للحظات أن صمتا كبيرا يحيطني ويحجب كل صوت حولي، كأن كل ما حولي لا يعنيني في شيء.

* * * * *

زارتنا منار بعد زواجها بسنوات في المدينة التي كنا فيها، عرفتها حينها إنسانة جميلة رقيقة حريصة على تربية ولديها، أصبحنا صديقتين سريعًا مع ما بيننا من سنوات، ربما أكثر مما لو نشأنا سويا، لعلها الغربة ذاتها التي جعلتنا نقترب هكذا.

قالت لي منار إنها تود لو ربت ولدها إياد الذي كان عمره وقتها سنتين، ليصبح من فتيان حماس، وعَدَتْ الشيخ أحمد ياسين بذلك حين زارته مع زوجها في المستشفى، تقول إنه أعطى إياد وسلمى حلوى، وأعطاها هي أيضًا، ودعا لهم، كانت دائما تقص عليّ ما حدث في هذه الزيارة، تحكيها بكل تفاصيلها وتقول كل مرة: "صدقيني يا

ميس إنني وأنا أجلس جواره كنت أشعر أنني في الجنة، لن تكون الجنة كبيرة الفرق عما شعرت به وأنا قرب هذا الرجل".

أشعر أنهم هناك يعيشون حياة لا تشبه الحياة التي نعيشها، رغم أنهم يسهرون ويتزوجون ويتسوّقون، يدرسون في المدارس والجامعات وحتى يسافرون في بعثات بعيدة، إنهم لا ينظرون للحياة كما ننظر نحن لها، ربما لا يكون الموت قرارا سهلا لكنه هناك يبدو كذلك، الموت هناك شريك رسمي في حياتهم، ما من بيت إلا ويزوره الموت مرات كثيرة، لا يعني انتهاء يوم بسلامة إلا أنّ خطرًا ما تركك اليوم؛ ليأتيك في الغد، لذلك أشعر أنهم هناك يحيون بحق، إن كل يوم هناك يعد حياة كاملة.

حياة أولها ميلاد النهار وآخرها إغماض العين وقت النوم.

لا تكون الحياة حياة، إلا حين نخشى الموت، إلا حين يكون وجوده واضحًا وضوح الحياة حوله.

(٨)

تتنبه حواسنا لندرك الحياة فجأة، كأننا لم نكن نراها قبل ذلك.

تمر على الألوان، لا نلمسها، حتى يضيء فينا لون منها فجأة، كأنه خُلِق الساعة، فنرى به كل الألوان حوله، ونسمع الصوت مرات فيشرق فينا لحظة، فكأننا ما سمعناه من قبل، وتمر الأيام أصفارًا متعاقبة حتى يولد ذلك الواحد وراءها، فإذا الأصفار تغدو ملايين كثيرة في طَرفة.

بعض الناس لا يثيرون صخبا حولنا، لكنهم ينتشرون في نفوسنا من حيثُ لا ندري.

ليلى الحاضرة بقوة في نفوس كل من حولها، لا تعرف إن كانت الحياة تتجمع حولها أو تنبعث منها، دائبة الحركة كأنها الشمس تخشى أن تترك ركنا لا يصل إليه نورها.

نورها الذي يصل إليّ وجلا مرتجفا، لا أستطيع أن أملأ نفسي به ولا أن أنصرف عنه.

لأن ليلى مسيحية، وفي المدينة التي كنت فيها لم يكن هناك مسيحيون إلا في كتب التوحيد والتاريخ، وفي كليهما لم تكن هناك علاقة قائمة إلا الاختلاف في الدين وهو ما كان يحقق معنى الكلمة التي لم تتضح لي من جواب أمي، حين سألتها عمن يذهب إلى النار أول مرة.

حين سمعت وأنا في المدرسة أنه لا يجوز أن نحب النصارى؛ لأنهم من أهل النار، وأن من يحب أحدا يحشر معه، حزنت لأنني كنت أحب فيروز حينها كثيرا، كانت فيروز تصنع لي نصف سعادتي في تلك المدينة الغريبة.

إذا كانت رانيا هي التي كتبت بخطها كلمة الحب في نفسي أول مرة، ففيروز هي التي صحبتني وأنا أتعلم أحرف الجمال الأولى في هذه الدنيا.

كيف لا أحبها وهي التي حين تغني، فكأن روحا بيضاء تحيط بكل ما حولي، وكأن الكون كله حرف نغم في لحن جميل.

كيف لا أحبها وهي التي صحبتني حين عرفت رانيا، وحين سافَرت، وحين تركتُ الغربة إلى غربتي الجديدة.

فيروز التي لم يكن يمر يوم دون أن ألقي عليها السلام، دون أن أغني معها يا مرسال المراسيل ويا دارة دوري فينا، وأضحك من القمر وهي تقول له: لوما بتقعد تتسمع وتفضح العشاق.

حينذاك لم يمكنني أن أفكر في ألاّ أحبها.

كان بديهياً أن أعيد نفس الأسئلة وأنا أتذكر هذا، أعيدها بغير عقل الطفل الذي يسأل عن الجنة والنار أول مرة، وهو لا يشعر أن شيئًا منها يمسه أو يعنيه.

أعيدها وأنا أشعر أن ما لم يكن يعنيني قد أصبح قريبا جدا مني. من أشيائي التي أحبها، من أحرفي التي أصنع بها حياتي الصغيرة.

تعود رانيا حاضرة أكثر.

وتكبر فيروز وأنا أسأل:

ما هو الدين؟

وهل يختار لنا الدين ما نحب؟

ولماذا يتدخل في كل شيء في حياتنا حتى هذا؟

في السابق كنت أجد الأسئلة كثيرة ولّما لم أجد شيئا ارتاح إليه كففت عنها واعتبرت أن فيروز ليست ممن عليّ ألا أحبهم، لم أبحث عن دليل وعلقت الأمر على ذلك، وأنا مقتنع أن بعض الأسئلة حين نسألها، فإننا لا نصل فيها لإجابات، حتى ولو كانت إجاباتها ظاهرة بينة.

لأجل ذلك كله. كانت ليلى بعيدة عني، و لم تفلح الكلمات القليلة التي كنا نتبادلها لمامًا، في اختصار تلك المسافة.

* * * * *

كالألوان القابعة في طرف السماء تنقلها من ظلام الليل إلى نور الصباح، لا تستطيع أن تصنع حدا واضحا بينها، فلا تعرف في أي درجاتها انتهى الليل.

هل يمكننا وضع أيدينا على الخطوط التي تفصل ألوان الشفق، أو ألوان ميلاد النهار، إننا قد نستطيع أن نصف لون كل جزء فيها، لكننا مهما حاولنا فلن نستطيع أن نقول هنا وقف الأحمر ليبدأ البرتقالي، فكما أن الضياء والظلمة في السماء لا ينفصلان بحد واضح ندركه، فكذلك الضياء والظلمة في نفوسنا.

شيء ما بدأ يتسرب إلى نفسي.

إذا جلست أدون يومياتي، أجد ليلى وقد احتلت جزءاً كبيرًا فيها، وإذا سمعت أغنية أحبها، أشعر أن ليلى حاضرة معها، وحين أقلب الأسماء على هاتفي، أقف طويلاً أمام اسمها، إذا أعجبتني رسالة مررتها إليها، وإن بدت لي علة حديث اتصلت بها، ولا أكاد أنتهي من حديثي معها، حتى يعود الحنين إليها أكثر مما كان.

أبحث عنها إذا غابت، أتلمس الأماكن التي تقف فيها، وأسماء الذين تقف معهم، أبحث دوما كيف تلقت كلمة تكلمت بها، أفعل كل ذلك على وَجَل، أو هكذا بدا.

كان شعورٌ باطمئنان زائف يخبرني أن شيئًا ما لن يحدث بيننا؛ لأنه ليس من طريق معبّدة لذلك.

فأتمادى في تقدمي موهما نفسي الأمان.

لكن الماء الضعيف لا ينتظر —عادة– طريقًا معبّدة يسير فيها، إن طريقه حيثُ استطاع أن يملأ فراغات الأرض؛ ليأخذ بعضه يد بعضِه، حتى يملأها ويسيل.

* * * * *

(٩)

حسين أكثر الوجوه النشطة في طلبة التيار الإسلامي، كما كانوا يوَقّعــون، أو طلبة الإخوان المسلمين كما يحب أن أسميهم، لا يترك محاضرة يمتلئ فيها المــدرج، إلا ويلقي كلمة صغيرة قبل مجيء المحاضر، ومعه طالب آخر يكتب حديثًا على الــسبورة الفرعية، لا يمحوه أحد من المحاضرين في العادة.

يتكلم حسين في الاختلاط والعلاقة بين الشباب والفتيات، وفي أحوال المسلمين في العالم، يقرأ خبرًا أو اثنين عن شهداءَ في فلسطين، أو يُذّكر بأحداث ومذابح قديمة مما حدث هناك.

لا تخف الضجة من المدرج في أثناء كلمته، لا يلتفت لحديثه كثيرون، في الأوقات التي أكون فيها منفردًا، أُصغي إليه، يبدو مرتبكًا دائمًا، ينظر إلى البــاب بــين جملــه القصيرة، ولا يعير هرج المدرج بالاً، وفي الأيام التي تكون فيها المظاهرات، يبدأ دائما إعلانه عنها بآية: "مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض"، ثم يتكلم عن فضل الجهاد، وأنه إن حيل بيننا وبينه، فلا أقل من كلمة حق نلقى الله بها.

يثير حديثه هذا خوفًا مبهمًا في نفسي، خوفًا يصل بي أحيانًا إلى حد الفزع، هل يمكن أن يكون صادقًا، أن يكون انصرافي عن المسيرات اســتثقالاً إلى الأرض كمــا يسميه، إنني أفهم الآية في الجهاد، وشتان بين الجهاد والمظاهرات، صحيح أنه حتى ذكر الجهاد يخيفني، تبدو صورته مبهمة في نفسي، لا قرار فيها، صورة الموت وحده، وهي كافية لتصرفني عن التفكير فيه.

رآني مرة أقف أراقب المظاهرة، فسلم عليّ وسألني عن أحوالي وهو يعلق ذراعه بذراعي، حتى وجدت نفسي معه أسير وسط المظاهرة.

حين تكون واحدًا وسط آلاف يسيرون، فإنك تسير معهم ولو مدفوعًا، وحين يهتفون فإنك دون أن تشعر تهتف بذات هتافهم، وينتقل إليك الحماس الذي فيهم. في ذلك اليوم، أدركت أن كل عمل كبير إنما يصنعه قلة ما تتبعها كثرة طائعة، حتى الحضارات، تُبنى بهذه الطريقة، لا تحتاج الحياة لأكثر من هذا، يكفيها واحد فقط يصنع لها الفكرة، أي فكرة، ثم يسير الناس على طريقه.

حين يكثّر أتباعك اصنع ما تريد، ولا تخشَ شيئا، فلابد أنك ستنجح.

* * * * *

اتصلت صلتي بحسين، أو اتصلت صلته بي؛ لأنه هو الذي بدأها ذلك اليوم، أصبح يقف معي كثيرًا إذا لقيني، يسألني عن أخباري، وإن كنت أحتاج إلى شيء يمكنه أن يساعدني فيه.

حسين ريفي باقٍ على ريفيته، مع أنه جاء المنصورة في أول مرحلته الثانوية، كل ما فيه كان بكرًا، لهجته وثيابه والطريقة التي يتعامل بها مع كل شيء حوله، صوته أعلى مما هو عليه إذا تحدث في المدرج وأكثر حيوية وانطلاقًا.

يسكن مع طلبة آخرين في شقة قريبة، غرفته تملؤها الفوضى، مكتب مجاور لباب شرفة صغيرة، يملأ الغرفة نور الشمس من باب الشرفة، وعلى المكتب أوراق كثيرة مبعثرة، تعلوه صورة كبيرة لمسجد قبة الصخرة، وضع في ركنها صورة مقصوصة من مجلة للشيخ أحمد ياسين في طرف، وصورة للدكتور عبد العزيز الرنتيسي من الجهة

الأخرى، وسريره عليه ثياب كثيرة جمعها بيده في ركن وهو يفسح لي مكانًا أجلس فيه.

يحتفظ بكتبه في صندوق صغير تحت السرير، أخرجته أقلب فيه حين تركني وذهب يعد الغداء.

على وجه الصندوق كُتُب الكلية ثم كتب أخرى، قلبت فيها وأنا أسأله: لماذا هذه المظاهرات؟

أقرأ عناوين الكتب التي يحتفظ بها وهو يجيب:

لئلاّ ينسى الناس قضيتهم.

"شمول الإسلام، الرسائل، فقه السيرة، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟، هذا الدين"

أكمل قراءة العناوين وأنا أجيبه: لن ينسوها؛ لأن الأخبار لا تغيب عن أحد، إننا نسمعها منذ كنا أطفالا.

شعرت أنني أريد أن أساله لماذا لا أشعر بشيء في أثناء هذه المظاهرات سوى الخوف، لا أشعر بغضب كما يبدو عليهم، خجلت أن أخبره أنني لا أشعر في الحقيقة أن الأمر مما يعنيني، كان لي أصدقاء فلسطينيون قبل أن آتي إلى هنا، و لم يكن الأمر يمثل لهم شيئًا كبيرًا، كانت حياتهم تشبه حياتنا هناك، ذات الغربة، بل إنهم كانوا أكثر اندماجًا وتصالحًا، لماذا إذا نغضب نحن؟ أي صلة لنا بما يحدث هناك؟

كان يُتم حديثه وأنا أفكر في هذا الكلام، ثم قال: في الحديث أن "من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم".

كانت عبارته هذه كافية لألوذ بالصمت.

ولتعود كل أسئلتي بقوة مرة أخرى.

ماذا يلزمني إذا أن أفعل، ليتحقق انتمائي للمسلمين؟

من أحبُ ومن أبغض؟

كيف أسير؟

وأي طريق أسير فيها؟

ما الحدود التي يرسمها الدين لنا، ولا ينبغي علينا تعديها؟ هل هناك قائمة أفعال إن التزمتها لم أخرج عن انتمائي للإسلام، وكيف تكون المحبة والانشغال –وهما عمل قلبي لا يد لنا فيه– مما يترتب عليه أمر الانتماء من عدمه؟

طرحتُ كل أسئلتي على حسين فجأة، لم أدعه يكمل حديثه وأنا أعيد عليه كل الأسئلة التي تجمّعت لديّ مرة واحدة.

مد يده إلى الكتب التي في يدي، وأخرج لي كتابًا صغيرًا وهو يقول: فيه جوابك الذي تريد.

كان الكتاب صغيرًا، لم ألتفت إليه حين كانت الكتب بين يدي، يحمل عنوانًا واضحًا، سؤال واحد يختصر كل الأسئلة التي راودتني.

"ماذا يعني انتمائي للإسلام؟"

فرحت بالكتاب حين قرأت في مقدمته: "وغاية الجزء الأول من هذا الكتاب هي الإجابة على هذه التساؤلات جميعًا، وتبيان ما يطلبه الإسلام ليكون انتماؤك له انتماءً

صحيحًا وحقيقيًا، وبالتالي لتكون مسلمًا حقا " **هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء علي الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولي ونعم النصير**".

لابد أن تكون أكثر الإجابات التي أريدها حاضرة هنا، بدأت أتعرف على الإسلام في هذا الكتاب، كان إسلام "فتحي يكن" منظمًا جدًا ومرسومًا بوضوح وعناية.

أن أكون مسلما في عقيدتي، في عبادتي، في أخلاقي مع أهل بيتي ومع نفسي، يرسم الصورة بخطوط حادة لا لبس فيها وباتساع كبير لا ضيق معه، يشرح علاقة الإنسان بكل ما حوله، بالله الذي خلقه وبالكون الذي خلقه الله للإنسان، يرى أن الإسلام ينظم كل ذلك ويبتعد به عن الفوضى والعبثية، ينظم الصلة بين مركّبات الإنسان كلها، بين عقله وجسده وروحه.

كان حديثه قادرًا على إيصال هذه المعاني إليّ، حتى إذا وصل إلى ضرورة العمل للإسلام، أتعثر من جديد، يحمل هذا العمل في نفسي معانٍ كثيرة تنتهي كلها إلى الخلافات القوية بين أكثر العاملين في هذا المجال.

بالطريق العقلي: "أصل الاختلاف الجهل"، عدم المعرفة الكاملة بشيء، يجعل الحكم عليه غير تام، مع ذلك فلا يمكننا اتهام هؤلاء جميعًا بالجهل، أسماء علمائهم والكتب الكثيرة التي لهم، تقول ذلك، إلا إن لم يكن العلم شيئًا واحدًا، أو كانت للنور صور كثيرة.

لا يمكن أن تصنع المعرفة إذا وحدها الصلة الروحية المتجانسة بين الناس، وإلا لما ظهر اختلاف ولا بين أهل الأديان المختلفة؛ لأنها في الحقيقة تنتهي إلى أصل معرفي واحد وهو الله، وحدة المنشأ ووحدة الغاية ووحدة الطريق، كل ذلك مجتمعًا هو ما يؤدي إلى هذا التجانس.

والدين ينطلق من نقطة واحدة، هي النفس الإنسانية، وينتهي إلى غاية واحدة، هي الله تعالى، والإسلام يخرج من أصل واحد، هو النص الإلهي، وينتهي أيضًا إلى غاية واحدة، هي تحقيق مقتضى هذا النص.

أصِل إلى هذه العبارة بعد انتهائي من قراءة الكتاب، يقول إنه حتى الخير والجمال حين يكونان مجردين من عقيدة وإيمان، فإنهما لا يُشيعان في النفس الشعور بالرضا الذي تطمئن به النفس الإنسانية.

كان الكتاب يرتب مفردات كثيرة، بقيت هائمة في نفسي لا تستقر زمنًا طويلا، وحين تقع الكلمة على موضعها أو موضع يشبهه، كنت أشعر بذلك اتزانًا هادئًا، المعرفة تصنع الاتزان، وتوهم المعرفة أيضًا، قد يفعل ذلك، غير أن الاتزان الذي تصنعه المعرفة يكون أكثر استقرارًا وأكثر دوامًا عما سواه.

(١٠)

يصيبني الارتباك عند التفكير في ماهية هؤلاء الطلبة، في مسجد الكلية حيثُ تحدث على فترات مشادات خفيفة بين حسين وأصدقائه المحيطين به، وبين ركن آخر يجتمع فيه طلبة آخرون، يتزعمهم طالب يسميه زملاؤه الشيخ "حازم". كان حازمٌ طالبًا في السنة الخامسة، كثيف اللحية خفيض الصوت يصلي بنا الظهر كل يوم، ثم يلتفت إلينا فيتحدث حديثًا قصيرًا هادئًا، لم يكن حديثه يخرج عن أوصاف الجنة والنار وأخطائنا في الصلاة وأحكامٍ قليلة أخرى، والشيخ حازم له حضور كبير بين الطلبة، يقبلون منه تعليقاته أيا كانت، حين يمر عليهم مسرعا وهو يتحاشى النظر إلى الفتيات.

تحدث المشادات عادة إذا تحدث أحد أصدقاء حسين بعد الصلاة، أو جلسوا لقراءة القرآن في حلقة واسعة يجتهدون أن يكون حضور الطلبة فيها كبيرًا، يرون أن عملهم هذا متاجرة بيّنة بدين الله، يقولون إنهم يجمعونهم على القرآن ليعلموهم نسخة الإسلام التي يحملونها لا الإسلام الصحيح.

أما حسين فكان يقول عنهم: إنهم لا يحسنون فهم الإسلام كما ينبغي أن يكون، يحصرونه في عبادات وأخلاق، متناسين أنه نظام كامل لعلاقات الإنسان في الحياة، أن الله حين خلق الإنسان وكلفه بعبادته، كلفه معها بإعمار الأرض واستخلفه فيها، قال: ولو صح تعبير "نسخة الإسلام" التي نحملها، فهي وإن لم تكن النسخة الأصح، فهي نسخة أوسع كثيرًا مما يحملون.

* * * * *

حاولت البحث في أصول هذه الحركات. شعرت أنه بمعرفتي لذلك يمكنني فهم أسباب الاختلاف الذي أجده بينهم. مادام الأصل الذي يدّعون الانتساب إليه واحد

فلابد أن يكون الطريق متشابها في غالبه. وأي خلاف فيه يكون مرده إلى عوامل أخرى ليست في الطريق. يعود ظهور الحركات الإسلامية إلى الفترة التي أعقبت انتهاء الخلافة الضعيفة في تركيا، انهيارها الذي صاحبه حركات استعمار واسعة، فجّر إحساسا عاما بالخوف على الهوية الإسلامية للمجتمع، لاسيما حين اتضحت الفروق الكبيرة بين ما أصبح عليه المجتمع الشرقي من تأخر، وما وصل إليه المجتمع المستعمر الجديد من تطوّر في كل جهات الحياة، حتى أولئك الذي حملوا همّ الهوية الإسلامية والدفاع عنها، لم يسلموا من صدمة اتساع الفروق بين كلا الثقافتين، كان لزامًا أولاً أن يجد هؤلاء تحليلاً يستطيع أن يصف ما حدث، دون أن يعلقه على الصفة الإسلامية للمجتمع، وهي اللهجة التي بدت في حديث كل الذين انبروا لبيان العلل التي لأجلها وصلت الفروق لهذه الدرجة، مهاجمين الإسلام باعتباره السبب في ذلك.

وطبيعي لأمة تعتبر دينها هو الأصل الذي تعيش به طوال عمرها أن تدافع عنه، ألا تتركه نهبًا لتحليلات كهذه، فهرعت إليه تبحث فيه من جديد، تعيد قراءته وتتبع نصوصه لتكتشف أن هذا الدين قد تنحى حقيقة عنها منذ عصور، وإن بقي اسمًا وهيئة تشبه ماء في زجاجة الدواء، يخدع المريض؛ ليتصبر به ولا يداويه.

كانت تلك هي الفترة التي انبعثت فيها الشرارات التي اقتبست منها هذه الحركات جذوتها، اختلطت كلها بالحركات الوطنية في فترة الاستعمار؛ لأنه استعمار يهدد الوجود والهوية، حتى كانت سنوات الاستقلال المصورة التي شملت العالم الإسلامي كله، فبدأت تتشكل علاقات جديدة بين هذه الحركات والمجتمع الذي تعيش فيه والأنظمة الجديدة الحاكمة.

انتفت الصبغة الوطنية حين زال الاستعمار، هكذا بدا للجميع، لكن الهوية التي تحرّك الجميع لأجلها كانت تتهاوى، ربما أكثر من تهاويها حال وجود المستعمرين.

كانت أكبر هذه الحركات على الإطلاق، جماعة الإخوان المسلمين في مصر، وهي التي تخرّج منها أكثر الذين استقلوا بحركات صغيرة فيما بعد، بعضها تيسرت له سبل النمو الفكري حتى أصبح قائما بذاته، وبعضها قام على قشور لا تحمل لبا فاستهلك نفسه سريعا و لم يبق منه إلا تاريخ قصير.

تواريخ هذه الجماعات الصغيرة التي لم يكتب لها البقاء، أعلى صوتًا وأكثر حضورًا مما سواها، أحداثهم كانت أكثر صخبًا ودموية، وانقساماتهم كانت سريعة ومتتالية، ككل الأبنية الفكرية ضيقة الحدود التي لا تستطيع أن تستوعب ذاتها، فتفشل في استيعاب المجتمع المحيط بها، كانت تلك الحركات أشبه في نموها وفنائها بحركات الخوارج المتتابعة في صدر التاريخ الإسلامي، وإن اختلفت العلل المسببة لذلك.

كان الهدف الذي يحمله الجميع في ذلك الوقت، وهو إعادة الحياة لدولة الإسلام المفككة، هدفًا قد يبدو واضحًا في لفظه، لكنه لا يحمل حدودًا واضحة معلومة. ربما كان هذا هو الهدف الوحيد الذي تجتمع عليه كل الحركات الإسلامية في كل فترات التاريخ.

حين تكتشف أنك مختلف عمن حولك في هدفك وحركتك، سرعان ما تُكسب هذا الاختلاف ثوب لغة يجعله أكثر وضوحًا وتمايزًا، وهو ما حدث مع الخوارج ومع الشيعة ومع المعتزلة ومع جماعات العصر الحديث أيضًا.

في البدء، كانت فكرة وهدفا، ثم بُنِيَ حولهما منهج ورؤية وأسلوب، ثم وجهت انتقادات ومآخذ ثم ردٌ عليها أعقبه تعصبٌ وحمية، ثم رفض مطلق لما عليه المجتمع، يتبعه رفض مقابل من المجتمع للفكرة والهدف والمنهج والأسلوب.

* * * * *

(١١)

كجذور الأشجار الممتدة في باطن الأرض لا تراها أو تشعر بها، تتشابك أطرافها، وحين تجرب انتزاع إحداها، تهتز لك الأخرى، ساعتها تدرك أن شيئًا ما قد حدث لم تكن تراه.

نتحدث في أشياء كثيرة، يفتح حديثها أبوابًا لم أكن أراها في الحياة، أتعلم معها كيف أتلقى رسائل الجمال التي يحملها كل شيء حولي، تقول إن الله لم يخلق الدنيا جميلة ليأمرنا بالانصراف عنها، لابد أنها تحمل رسالة أخرى أكبر من كونها اختبارًا قاسيًا نستحق به الجنة، الله أجمل من أن يفعل بنا هذا، أن يلقينا في كل هذا الكون الجميل ليقول لنا انصرفوا عنه.

قلت لها: لأنه يخبئ لنا عالمًا أجمل.

قالت: وكيف يمكننا إدراك الجمال في الجنة، إن لم نتعلم ذلك في الدنيا، من لا يعرف الجمال لن يسعد به.

قلت لها إن الله سيعلمنا وقتها كيف نرى ذلك الجمال.

قالت: ولماذا إذا استعمل الله معارف البشر ليخبرهم صفات الجمال في الجنة، في الجنة لن تكون لنا حواس جديدة، فقط ستصبح حواسنا أقوى وصوارفنا أقل.

في حديث ليلى دائمًا أركان جديدة مضيئة تجعل الدنيا أرحب وأكثر إضاءة، تكتسب الأشياء معها معانٍ جديدة غير معانيها التي اعتدتها، أصبحت أشعر أن أي

شيء ستمد إليه يدها، سيصبح جميلا، لا يكفي الحسن القابع في الأشياء ليمسنا حـــين نراه إحساسًا بالجمال، أحيانا ينقصنا مفتاح صغير يفتح لنا ذلك.

مع ليلى أجد هذا المفتاح.

الصباح الذي يبدأ باسمها على شاشة هاتفي الصغيرة لا يشبه أي صباح عرفته قبل ذلك. لا يشبه الصباح الذي تلده الشمس كل يوم. كأنما يولد هذا الصباح من شيء ما في داخلي فينير العالم حولي.

صوت أم كلثوم وهي تغني: "الكروان غنى وصحانا" أو فيروز وهي تقطف وردها: "بقطفلك بس ها المرة ها المرة وبس عا بكرة عابكرة بس شي زهرة شي زهرة حمرة وبس.

تقول ليلى: "في الموسيقى نكون أقرب للسماء، أكثر انطلاقًا وخفة، في الموسيقى تنظيم للصوت وللزمن.. وللحياة.

في الموسيقى بحث عن صفاء الروح، عن التحرر من الجسد الذي نشعر أنه هو ما يقيدنا لهذه الأرض، والإنسان دومًا يسعى ليعلوا فوقها، ليتحرر منها، إن أول ما يفعله الطفل الذي يتعلم السير، إذا رأى درجة صغيرة تعترضه، هو أن يضع قدمه فوقها يحاول ارتقاءها، نحن في حياتنا دائمًا نبحث عن الارتقاء، عن العلو، إلى السماء، لذلك تملأ الموسيقى كل الطقوس الدينية عند أكثر طوائف البشر، يحاولون الوصول بها إلى السماء.

أحيانا أشعر أنه يكفي سماع الشيخ عبد الباسط عبد الصمد لاعتناق الإسلام، حتى لو غابت عني معاني ما يقرأ، في القرآن موسيقى فريدة، موسيقى خاصة جدًا.

الجمال هو العلاقات الواضحة والنسب الموزونة.

للحرف الجميل -كما للوجه الجميل- موسيقى، الموسيقى هي اللغة التي يكتب بها الجمال، قس أي معنى عليها، فإن استقام فهو جميل، إن استطعت أن تحول أي صورة حولك إلى لحن تسمعه في نفسك، فهي الصورة الجميلة.

أحببت الدنيا كثيرًا من عيني ليلى.

وأحببت نفسي أكثر، كنت أشعر أنني جميل حين ألقاها، أن في نفسي أشياء لا أدركها تنكشف لي إذا جاءت هي، وتغيب إذا غابت. حتى أصبح غيابها غيابًا لنفسي الجديدة وخوفًا من فقدها.

ومع كل اكتشاف جديد، يزيد تعلقي بها وخشيتي من أشياء كثيرة تتراكم في نفسي، كنت أخشى أن أصرح حتى لنفسي أنني أقترب من حبها، حين تصل في علاقة إلى التصريح لنفسك أنك تحب، فلابد من خطوة تالية وإلا سينهار كل ما حولك.

لا يولد الحب بريئًا أبدًا، بل لا يولد طفلاً كما تعلمنا، حين تكتمل أعضاؤه في نفسك، يكون في أوج قوته وهو يسألك سؤالا واحدًا: ماذا ستفعل؟

وهو السؤال الذي لا ينتظر إجابته طويلاً، فإما أن تجيب سريعًا، وإما يعتبرك متمردًا عليه، غير مقدر لقيمته.

وهو في ذاته مغرور، لا يرى أي شيء سواه، لا يقيم وزنًا لكل قيم الحياة حوله، رغم أنه شريك فيها جميعا، كل عواطف البشر الحسنة يسكن الحب مكانًا بارزًا فيها، لكنه منها كماء الورد، قليلٌ منه يمنح الماء عطرًا جميلاً، لكن الكثير منه مُرّ لا يحتمل.

حين يأتي مجردًا، فليس من طاقة أحد احتماله مهما حاول.

لحظة اعترافك لنفسك بحبٍ، هي لحظة انهيار السد الكبير أمام نهر عظيم، إما أن تكون قواربك قوية مستعدة، وإما تتحطم في لحظة.

ومع ليلى، لا أعرف أي نوع من القوارب يمكنه أن يتحمل، ولا حتى أي وجهة للشراع تحمل القارب إلى الأمان.

* * * * *

(١٢)

مثلت ميس حضورًا آخر في نفسي، لم يكن له نفس العطر الذي يشيعه حضور ليلى، إلا أنه وفي فترات تشككي وأسئلتي الكثيرة، كان حضورها هو اللحن الهادئ الذي يعيدني إلى حالة الصفاء الأولى التي فارقتني منذ زمن.

كأنني أردد وأنا معها:

كل شي أصبح مرًا في فمي بعدما أصبحت في الدنيا عليمًا

آه من يأخذ عمري كله، ويعيد لي الطفل والجهل القديما؟

لماذا يرتبط الصفاء بالجهل ويرتبط الجهل بالطفولة؟! إنني أحب الطفل القديم الذي يسكنني وأكره أن يحكم عليه أحد بالجهل، لم يكن جاهلاً أبدًا ذلك الطفل البعيد، كان قادرًا على أن ينام بهدوء، على أن يصحو سعيدًا، على أن يحل أكبر مشكلة تواجهه، لم يكن يجوع إلا قليلاً، لم يكن أي صارف يقدر على أن يثنيه عما عزم عليه.

كان يقف على حافة الشرفة لا يخشى السقوط، ولا يسقط، يقفز الدرجات ويتزلق على كتف السلم ويصعد فوق الباب، دون أن يخشى شيئا، ولا يحدث له مكروه.

يسأل عن الله وعن الجنة وعن النار ثم ينسى كل ما سمع، ويُتم حياته التي اعتادها؛ لأن شيئا لا يقترب منها.

ميس هي البوابة التي أعود منها إلى ذلك الطفل القديم، هي -التي لم تشاركني طفولتي في حقيقتها- شاركتنيها في هيئتها، فحتى برامج الأطفال التي كنت أتابعها في المدينة البعيدة، تعرفها وتحبها كما أحبها، إذا ذكرت لها "سالي"، غنينا معا أغنيتها التي أحبها: "أنا قصة إنسان.. أنا جرح الزمان"، ليدي، بوليانا، ريمي، وحتى الكابتن ماجد، نضحك كثيرًا إذا نقّبنا عن هذه الحكايات، ورغم تكرارنا لها مرات كثيرة، إلا أنها كانت تحتفظ بقدرتها على إقامة الطفل القديم كاملاً في نفسي.

لم أكن أثير معها أي نقاش حول ما أفكر فيه، يكفيني منها الطفلة التي فيها، كأني أصاحبها بالطفل الذي فيّ وحده، وحين سألتني نفسي مرة إن كنت أحبها، كان جوابي سريعا بالإيجاب.

نعم أحبها.

كان الجواب واضحًا بصورة لم أعتدها في أجوبة أسئلتي الكثيرة.

كنت أحب ميس لا حب رجل لامرأة، بل إنني أحيانا كنت أتمنى لو لم تكن ميس فتاة؛ حتى أستطيع أن أخبرها بهذا الحب، لو أستطيع أن أرسم معنى هذه الكلمة في نفسها، كما هي في نفسي، لأخبرتها بذلك.

في قلوبنا غرفٌ كثيرة نحتاج لمن يسكنها، نحتاج أن يمتلئ القلب كله؛ لنشعر بالرضا، في هذه الغرف نحب آباءنا وإخوتنا وأصدقاءنا، لكلٍ مكانه الذي يملؤه، ولا يمكن لشيء ما وحده أن يستأثر بهذه الغرف جميعا، تشريحيًا لا يقترف الدم هذه الجريمة، يعلم أن لكل حجرة نوعًا له وصفه، فيقف عند ذلك لا يتعداه، لذلك كنت أشعر بضرورة وجود ميس تملأ ركنا في نفسي، وهذا الامتلاء هو ما جعلني أجيب أني أحبها.

إن كل ما يسكن القلب لا نجد له في اللغة إلا هذه الكلمة الصغيرة.

وحين نحب الله، فإننا نحبه من كل هذه الغرف مجتمعة ومما حولها أيضا، فينقلب حبه في حب كل من نحب نورًا وسكينة وصفاء ورضا.

كنت دائما أسأل كيف يرتبط الإيمان بمحبة الله أو محبة الرسول صلى الله عليه وسلم، والمحبة عمل قلبي لا يد لنا فيه، كيف يعلق الله حسابنا على عمل ليس بأيدينا؟

يجيبني أستاذي أن المحبة هنا تعني الاقتداء.

الاقتداء هو الاقتداء، قد نقتدي دون محبة، لأن عقلنا يعلم أن المصلحة في ذلك.

الحب غير ذلك.

الحب شعور باحتياج وأمان.

بامتلاء بالمحبوب.

وبفناء فيه.

الحب أعلى درجات القرب بين ذاتين.

لذلك تعلق به تمام الإيمان.

وأنا أسمع حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: "أحبوا ما أحب الله، أحبوا الله من كل قلوبكم، ولا تملوا حديث الله وذكره" يأتيني هذا الخاطر:

من كل قلوبكم.

أي من كل غرفها. من الغرفة التي أحب منها أبي والتي أحب منها أمي والـــتي أحب منها ميس. ومن الغرفة التي تنازعني من لا أعرف يقينا.

كل أنواع الحب التي يسكنها خالطوه بحب الله.

أفهم الآن معنى ما يقوله حسين بأننا نعامل الله في الناس، حين نحب أحدًا بقلب يحب الله، فإننا نحبه من حبنا لله، بهذا الحب لا يمكن أن يشقى أحد أبـــدًا، لا يمكـــن للحب مهما بلغت قسوته أن يؤذي قلبًا يحيطه حب عظيم لله.

إنه يصبح بردًا وسلامًا كما أصبحت النار بردًا وسلامًا على إبراهيم.

في كل هذه الأوامر بالحب أمرا واحدا يلزمنا. أن نتعلمه بحقه. لا يمكن أن يكون حسابنا بما ليس في أيدينا وليس في أيدينا سوى أن نتعلم. فالله حين يقول اقرأ يعني تعلم كيف تقرأ. وحين يقول أحبوا فإنه يريد أن يقول تعلموا الحب قبل أن تحبوا.

تعلموا أين تقفون من هذه العاطفة الجبارة وكيف تخرجوا منها كل الجميل الذي خلقته لأجلكم فيها.

* * * * *

(١٣)

كثر اختلافي إلى حسين، أشعر معه أني كالمستظل من الحر، لكنني بعد لم أجد الماء، لديه أشياء تنقصني لكنها لا تُتِمّني، أشياء ربما لا يدركها هو، كان قادرًا على الفهم بشكل صحيح، لكنني كنت أشعر رغم ذلك أن إجاباته كلها سابقة التحضير، كالرسائل الممررة في صندوق البريد، لا أشعر أنها لي وحدي دون سواي، وكان ذلك كافيًا أن يوقع في نفسي نفورًا من نقاشه، كنت أريد أحدًا حيًا فيما يدين به، حسين كان شديد الولاء لما هو فيه، وهو على ذلك شديد القبول لكل شيء آخر، لا يُبدي ضجرًا من أي خلاف مع أي أحد، لكنه أيضا لا يتزل عما يعتقده أو يطرحه للنقاش، وإن فعل، فهو نقاش حجج لا نقاش بحث عن حقيقة، كما يفعل كثيرون ممن يجمعهم مسجد الكلية في صلاة الظهر.

أجد دومًا توترًا بينهم، خصوصًا في أوقات الصلوات التي تجمعنا، استطعت تميز عدة صور للحركات الإسلامية في صفوف الطلبة، أكبرها كانت للإخوان، أما البقية فلم يكن سهلاً تصنيفهم، ورغم أنهم عدة صور لا صورة واحدة، إلا أنهم جميعًا يحملون اسم السلفية أو أنصار السنة، و لم أجد فرقًا ظاهرًا بين كليهما، إلا أنك تستطيع أن تدرك بسهولة الفروق الظاهرة بين طلبة الإخوان المسلمين ومن سواهم.

عرفت من حسين أن أول علاقته بالإخوان كانت في قريته، حين كان يخرج ليلعب الكرة من زملائه.

يقول: "كنت أذهب للعب الكرة صباح كل جمعة، أنا وخمسة من أصدقائي نكوّن فريقا لعبنا به في كل القرى التي حولنا، كانت المباريات صغيرة، وكنا ننهي اليوم قبل موعد الصلاة بما يكفينا، لنعود إلى البيت نستعد للصلاة".

بدأت ألحظ وجود شخص جديد يحضر مبارياتنا، يقطعها بمسابقات صغيرة تدور أكثر أسئلتها في التاريخ والفقه، ومعه دائما جوائز صغيرة لنا.

اعتدنا وجوده كل جمعة، كنا نلقاه في المسجد في صلاة العشاء بقية أيام الأسبوع، يسألنا عن أحوالنا وعن بقية الفروض إن كنا صليناها في المسجد أم في البيت.

كان اسمه الأستاذ أسعد، طويل أسمر، في وجهه هدوء، وله لحية سوداء صغيرة ترسم وجهه بوضوح شديد، كان رقيقًا جدًا وودودًا إلى حد بعيد.

ولما أصبحت في المرحلة الإعدادية، طلب مني أسعد مرة بعد صلاة العصر أن أنتظره في المسجد، وجدت خمسة من أصدقائي الذين كانوا يلعبون معي، جلسنا وقرأنا سورة النبأ، وتكلم هو كلامًا جميلاً لا أذكره، ثم أوصانا أن تتكرر مثل هذه الجلسات؛ لأنه ينبغي للمسلم أن تكون له ساعة من يومه يلتقي فيها بربه، يجدد إيمانه وينظر في أعمال الأسبوع كله ما صح منها وما أخطأ فيه، يستمد القوة من مشاركة أصدقائه له، لأن العبادة فعل جماعي لا فعل أفراد، ألم يقل الله في سورة الفاتحة "إياك نعبد"،، لم يقل "إياك أعبد" بل حتى دعاء الطعام نقول فيه: "الحمد لله الذي أطعمنا" لا "الحمد لله الذي أطعمني"، دعاء جماعة لا دعاء فرد.

ابتسم وهو يكمل: "ومن يومها وأنا أنتمي للإخوان، أدركت ذلك فيما بعد وأحببته، تغير أستاذ أسعد إلى حسن وحسن إلى إبراهيم، أشعر أن حياتي امتلأت كثيرًا؛

لأني عرفت هذا الرجل، تزوج وسافر بعد ذلك إلى الخليج، و لم أعد ألقاه إلا قليلاً، هو الذي علمني أن الحياة لله، أننا نحيا في كون مركزه الله، وأن الحياة جهاد كلها، مع أنها محض عبور، كل خطوة فيها إنما تقربنا إلى الله، لذلك ينبغي أن تكون أعمالنا فيها أيضًا لله، علمني أننا لا نعامل الناس إنما نعامل الله في الناس.

قلت: ولكن الصورة الظاهرة للإخوان هي عملهم السياسي، لا هذه التربية التي تتحدث عنها، حتى ولو كانت كذلك، فإن هذه التربية في النهاية إنما يراد منها إعداد قوة سياسية موجهة.

قال: إن السياسة حركة، والفكرة التي لا تكون قادرة على التحرك في البيئة التي تعيش فيها تموت سريعا.

– التحرك أم التلون؟

– التلون بأي شيء؟! حين ترى أننا نجامل في شرع الله الذي نقول إنه دستورنا، أو نتنازل عنه لأجل مكاسب ظاهرة، يمكنك أن تستخدم هذا التعبير، أما حين نعيد صياغة فكرتنا بلغة يمكن للناس أن يدركوها، وأصل الفكرة واحد لم يتغير فأي عتب في ذلك؟!

قلت: لكن السياسة تصرف عن الطريق الذي تسيرون فيه؟

قال: وهل يمكننا اختصار سورة التوبة من المصحف وكلها تتحدث في السياسة، الحياة في الإسلام كيان واحد متصل، الله الذي خلق المجرة الكبيرة وشرع لها نواميسها التي تسير عليها، خلق الذرة الصغيرة، وجعل لها نفس القوانين تسير بها، لا تختلف الأجرام الكبيرة في حركتها عن الكهارب الصغيرة.

وحين ينظم الله بقانونه حياة الأسرة الصغيرة، فإنه أيضا ينظم بها حياة المجتمع الكبير، كيف يمكن أن تتحقق العبودية لله، حين لا تحكم شريعته الفرد والأسرة والمجتمع الواسع؟

قلت: ربما لا ينكر أحد أحقية الله في تنظيم حياتنا، لكنني لا أفهم أن يكون هذا التنظيم بيد جماعة من البشر!

قال: وهل يكون بيد جماعة من الملائكة؟!

قلت: لكن البشر يختلفون في فهمهم، وفي طرقهم التي يصلون بها، حتى ولو كان الأصل واحدًا، السلفية وأنصار السنة وقبل ذلك الجهاد والتبليغ وأسماء كثيرة، هذا الانقسام الكبير، وهذه الرؤى المختلفة، حتى لو سلّمت معك باتساق الإسلام كبناء كامل لا يمكن اجتزاؤه،، كيف يمكن لنا أن نثق في العمل الإسلامي، في جدواه أو في مراده، وفي القائمين به،، ألا يشبه هذا قول أحدهم: إن الله لي وحدي، أليس الله لنا جميعا؟

في الفترات التي أعقبت عودة المغتربين من الخليج عادوا بصورة الإسلام التي هناك، حاولوا زرعها هم أيضا هنا كما هي، فرفضتها الأرض قبل أن يرفضها الناس، فظن أصحابها أنهم مبتلون بهذا الرفض وأن أي أذى يكون ابتلاء ويكون في سبيل الله، أليست الرؤية قد تصح في مكان ولا تصح في آخر؟ السؤال أيضا لماذا يستعمل الجميع هذه العبارة: "في سبيل الله" حتى لم نعد نفهم ما هو هذا السبيل؟!!

قال: لكن الإسلام في ذاته يصح، الإسلام بذرة تلقيها في الأرض فتنبت، لا شجرة تقتلعها من أرض لتزرعها في أخرى، ثم تخضع لقانون الإنبات: "وفي الأرض

قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون".

سبيل الله واسعة، تسع الناس جميعا، لا يمكن إغلاقها على أحد أو قصرها على رؤية، هذا أول ما ينبغي أن يعرفه مَن يسير في هذه الطريق، بعضهم يسير في منتصفه، بعضهم في أقصى طرفه، وبعضهم يقف ولا يسير، وكلهم مع ذلك في هذا السبيل.

– يعني أن العبرة في الوصول لا في الطريق.

– في كليهما، بغير الطريق، لن تصل، وبغير السير الصحيح، لن تصل أيضا، في الطريق الطويلة تلزمك أدوات للسير، ينبغي عليك أن تحسن اختيارها، قد لا تلتقي في منتصف الطريق باستراحة تختبر فيها ما وصلت إليه، وما بقي لك، قد تفاجأ أن البدايات الواحدة لا تعني نهايات واحدة أبدًا، ولو تشابهت في هيئتها.

* * * * *

(١٤)

حين اقتادونا إلى سيارة كبيرة في الشارع المجاور، لم أكن أعي ما يحدث، في العادة تنتهي كل المظاهرات بسلام دون المساس بأحد، حتى في المرات التي اختطف فيها بعض الطلبة، لم يكن هذا قد حدث في وقت المظاهرة، إنما يكون بعدها، في جوف الليل الساتر وبعيدًا عن أماكن التجمعات الكبيرة.

في ذلك اليوم، كانت المسيرة أكبر من كل مرة، وحين انتهت قرب العصر، خرجتُ مع حسين وزميلين له، و لم نكد ننعطف في أول شارع حتى برزوا لنا.

انتهى الأمر سريعًا في سيارة كبيرة تقف بعيدًا آخر الشارع، أبحث في وجوههم عما يبدد خوفي، عما يزيل توترًا جعلني عاجزًا عن الإدراك أو حتى السؤال، يحيط بهم هدوء غريب كأنهم كانوا ينتظرون ذلك أو كأنهم اعتادوه!

مرت دقائق والسيارة تمتلئ بطلبة كثيرين، و لم تكد تتحرك، حتى بدؤوا من جديد يهتفون كأنهم لم يغادروا المظاهرة بعد.

ذات الهتافات المدوّية ترددها جدران السيارة التي تحركت ببطء بين السيارات الكثيرة في ذلك الوقت المزدحم، الهتافات التي خبا صوتها في نفسي، فلم أعد أسمعها ولا أجد ذات الحماس الذي أجده حين تكون أثناء المظاهرة.

كانت الحجرة التي جلسنا فيها، نظيفة، مدهونة الجدران، بها نافذة متوسطة تتقاطع قضبان الحديد عليها، على شكل زخارف إسلامية يمتد ظلها على الأرض

متسعًا، حتى يصل إلى الباب، ولون الشمس المقتربة من الغروب يجعل الجدران البيضاء متوهجة بلون أصفر، يخلع عليها رهبة صامتة.

سألني حسين: أتشعر بالخوف؟

لم أجبه، لم أكن أقوى على فتح فمي مما أجد فيه من جفاف.

قال: "الذين آمنوا و لم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون".

في نفسي كان سؤال واحد: هل نحن مِن هؤلاء؟

ممَن استحقوا هذا الوعد بالأمن؟

* * * * *

مع انقضاء الأيام الأولى، بدأت الحياة تصبح أكثر انتظامًا، نقلونا إلى سجن صغير، تنفتح لنا أبوابه الداخلية بعد الفجر، فيسهل انتقالنا بين الحجرات المختلفة، وتغلق عند الغروب.

يبدأ اليوم قبل الفجر حيثُ يستيقظون، يجتمعون ويؤمهم في صلاة قصيرة قبل الفجر رضا، كان القرآن يخرج منه صافيًا نديًا، يسيل في نفسي سيلانا، لا يقف دونه شيء، يذكرني بأستاذ محمود الذي كان يعلمنا القرآن في المدرسة، أتذَكّر بهجته وأنا أستظهر له آياتٍ أكثر مما حدد لنا لنحفظ، يقول لي وأنا أقرأ: إن القرآن يحبني فلابد أن أكون على قدر حبه لي.

لم أكن أفهم معنى أن يحبني القرآن، لكن سعادته بي كانت كافية لتجعلني سعيدا، لأعود إلى أمي أطلب منها أن تحفظني آيات جديدة أكثر أعود بها إليه.

يجعلني مساعدَه في الفصل، أجلس جواره على كرسي وضعه لي، وأسمع أنا من الطلبة ما يقرؤون، قال لي: إن من يحبه القرآن يصبح دوما أكبر من زملائه.

رضا يفتح صوته القرآنَ في نفسي كأنما هي المرة الأولى التي أسمعه فيها، في الليل حين لا تنتبه من حواسك إلا أذناك، يكون الصوت وحده صانع عواطفك كلها.

تمتلئ بأمل واسع حين يقرأ: "حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء"، وحين يقرأ "ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون".

أعيش معه آيات سورة الكهف: "إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلها لقد قلنا إذا شططا".

رغم أن الله يحكي بضمير الغائب منسوبا إليهم وهو يقول "آمنوا بربهم" إلا انه ينسب الأمر إلى نفسه وهو يقول "وربطنا على قلوبهم". أي أنس حين تسمع الفعل ينسبه الله إلى ذاته. شعرت وهو يقرؤها أن الحكاية كلها لهم وهذه الآية لنا ونحن في هذا المكان. وربطنا إذ قاموا .. هو ذات الأمان المشروط الذي أخبرني به حسين.

الأمان المرهون بالقيام وحده.

أي سر جميل في القرآن، ولماذا يغيب عني حتى أكتشفه هنـــا في هذا الظلام؟!

أصبح رضا الأقرب إليّ في هذا المكان، لا أجده إلا وأطلب منه أن يقرأ لي، كأنني اكتشفت قرآنًا جديدًا غير الذي تعلمته.

"قد أفلح المؤمنون" تختصر بهدوء قصة الحياة كلها، تبدأ بما تريدك أن تصل إليه، تسير بك منذ كنت نطفة، إلى رحلة الاجتماع الإنساني بين هدى وزيغ حتى تنتهي

نهاية، هي الوجه الآخر لما ابتدأت به، بين أمل في الفلاح في أولها، ورهبة العذاب في آخرها، تنتهي بما يجمع الأمل الإنساني كله: "وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين".

يزول الخوف تدريجيًا وتمتلئ نفسي فرحًا خفيًا، وكلما اعتراني هذا الفرح، أشعر بحاجة كبيرة أن تكون ليلى أقرب إليّ، أتمنى لو أحدثها، لو أحكي لها ما أجد، أولئك الذين نتذكرهم حين نفرح فرحًا شديدًا أو نخاف، حين يحيط بنا خير كثير، أو يحيق بنا شر كبير، هم من يحيطون قلوبنا وحدهم.

في الغياب، تبدو الصور أكبر مما هي عليه عادة، ندرك أين في نفوسنا يسكن مَن حولنا، من نتحمل غيابه؟ ومن نشعر بنقصٍ لا يمكن لما حولنا شغله؟ رغم امتلاء نفسي بأشياء كثيرة تلك الأيام، إلا أن ليلى بقيت معي كل مساء، أتذكر وجهها الهادئ ويملؤني الحنين إليها، وكنت أخشى من هذا الحنين أن يفسد الجمال الذي أشعر به، أتذكر رانيا حين أصبحت جزءًا من دعائي، و لم يقو الدعاء على تحملها، كيف له أن يتحمل حضور ليلى إذًا؟!

كنت أشعر أنهما طريقان، وبينهما مسافة كبيرة، وأتمنى لو أجد جسرًا يربطهما، أن تبقى السعادة التي يشيعها القرآن في نفسي، والفرح الذي يزينها حين أكون مع ليلى.

في القرآن لا حرج من الزواج بالمسيحيات.

الزواج هو اشتراك طريقين في الحياة؛ ليكونا طريقًا واحدًا، هو تغير وجهتين ليسيرا معا لوجهة واحدة، هو بناء واحد يرفعه اثنان، كيف لطريقين بينهما هذه المسافة أن يكونا طريقًا واحدًا؟!

تقول ليلى: إنك تسلك للجنة التي تريدها طريقًا وأنا أسلك طريقا آخر، كيف يجتمعان؟

قلت: لأن الجنة واحدة.

قالت: لا يكفي أن تكون الغاية واحدة ليصل إليها الجميع من كل الطرق التي يسلكونها، بعض الطرق تقف بنا قبل الوصول، حتى لو كانت الرؤية واضحة في أولها، هناك عقبات لا تظهر إلا إذا انتصف الطريق.

أفكر هل يكفي الفرح الذي أحسه حين أتصل بأي شيء منها، ليكون علامة حب، إنها ذات العلامة التي تعلمتها حين كتبت رانيا هذه الكلمة أول مرة في نفسي.

إنها علامة..وأكثر!

ليس فرحًا مجردًا ذلك الذي يأتي، فرح يجعلني أريد لو أصنع لها الحياة من جديد، أن أكون فرحها إذا حزنت، وأمنها إذا خافت، وقوتها حين تستشرف القوة، لو أكون ابتسامها وضحكها.

أنا أحب ليلى.

هنا في هذا المكان البعيد عنها، أدرك ذلك، أصبحت الكلمة أكثر وضوحًا في نفسي، ظهرت أحرفها صافية دون مواربة، انهارت كل الألفاظ التي استعملتها، لم يعد لفظ منها قادرًا على الصمود، لا الإعجاب ولا المعزة ولا المودة ولا الحنين، لم تعد إلا هذه الكلمة الصغيرة وحدها.

"أنا أحب ليلى".

كأبسط ما تكون الجملة في كتب النحو، مبتدأ وجملة فعلية تحكي خبرًا واحدًا محكمًا.

هذه الكلمة الصغيرة كان لها أن تمر بهدوء، لو تعلّق الأمر بغير ليلى، أو لو لم أكن قد سمعت قبل ذلك هذا الحديث: "من أحب قومًا يُحشر معهم"، وأن المغضوب عليهم الذين ندعو الله ألا نكون منهم في كل صلاة، هم المسيحيون الذين تنتسب إليهم ليلى، وأن أتذكر حديث أستاذي وهو يخبرني أن أهل النار من الكفار الباقين هم اليهود والنصارى.

ألا يمكن أن يكون المفسرون قد أخطأوا في ذلك؟ كيف لكتاب مرسل لكل البشر أن يفعل شيئًا كهذا، أن يعادي صراحة نصف البشرية التي أُرسل إليها، إن الله لم يصرّح بأنه يعني اليهود والنصارى حين قال "غير المغضوب عليهم ولا الضالين" وكان قادرًا على ذلك،

ما الذي يمنع أن يكون المغضوب عليهم والضالون، هم من حادوا عن طريق الله، ولو كانوا من المسلمين أنفسهم؟

كيف يكون الزواج بغير المسلمين مشروعًا، ثم يكون حبهم محرمًا؟!

أيكون زواجًا بغير حب؟ إنه لا يقدم على زواج صعب كهذا، إلا محب متيّم، وحتى ولو لم يكن كذلك، فإنه ما من زواج لا يورث حبًا ما في النفوس، حتى لو لم يدرك، الحب الذي ينمو مع العِشْرة، مع السير سويًا في رحلة الحياة، مع الاحتياج والعطاء.

حين يمرض وتسهر هي قربهن ألن يشعر ساعتها لو أمكنه أن يهبها من حياته التي سهرت لأجلها؟

حين يكبران سويًا، يسمعان معًا حكى الأيام، يدفع عنها بردها وتظلله من شمسها، تروي ظمأه وتسد حاجته، وتكون أقرب إليه من يده، ألن يشعر حينها أن الدنيا كلها صغيرة صغيرة، وأنها هي وحدها كبيرة كبيرة؟

حب العِشْرة لا ندركه بسهولة؛ لأننا نعتاده بهدوء، كما نعتاد وجود الشمس الدافئة، لا نشعر بها مادات تأتي بكل وظائفها بانتظام دون كلل، حتى إذا عارضتها غيوم، أدركنا أنها هي من كان يحمل لنا دفء الحياة دون أن نشعر، قد يكون وحده أحيانًا هو ما بين الأب والابن أو بين الإخوة، حين لا يتعلمون حبًا آخر سواه، ومع ذلك يكفي ليحفظ لهم اتساق حياتهم، مع أن الكشف عنه واستخراجه، يجعل الحياة أكثر جمالا، كلما تعددت صور الحب في علاقات الإنسان، اتضحت له معانيه والجمال الكامن فيه، كالذي يعرف أنواع الطعام الكثيرة، فيعرف فضل بعضها على بعض، أما حين لا نعرف من الحب إلا صورة واحدة، أو من الطعام إلا طعمًا واحدًا، ننسخه في أي شيء آخر، فإننا نفقد أسرارًا كثيرة يريد الله أن يطلعنا عليها، بهذا التعدد الذي جعله في هذه الأشياء.

مهما كان عمر الزواج، فلابد أن يكون فيه هذه الشمس الدافئة التي تسمى – ولو على المجاز– حبًا، وحينها لا يمكن أن يكون هذا الحب محرمًا، لأن المؤدي إليه ليس محرمًا أبدًا.

* * * * *

أمضينا شهرًا في السجن الذي انتهينا إليه، كانت أكثر الأيام تنقضي في دروس كثيرة في التفسير والحديث والتاريخ، نجتمع ويتولى الدرس أكبر الجالسين سنًا عادة، دروس التفسير كانت الأحب إليّ، المعرفة الجديدة تصنع حياة جديدة، وحين تتعلق المعرفة بنص القرآن، تصبح هذه الحياة أرحب من أي حياة أخرى وأكثر إشراقا.

من هذه الدروس عرفت كيف أقرأ القرآن، كيف أفهم معاني ألفاظه وأتعامل معها، يتحول القرآن إلى نصوص ثرية مليئة بالمعاني حين تختلف نظرتنا إليه، من كتاب تعبد بالقراءة إلى كتاب نقرأ فيه إرادة الله، هذه الإرادة المبثوثة في كل حرف من حروفه حتى ليحملني الحرف الواحد إلى معانٍ دقيقة دقيقة لا يقوم بها حرف آخر سواه، إرادة الله كما بثها في حروف القرآن بثها في الكون حولنا، حين نقرأ الكون فإننا نقرأ أيضا إرادة الله، نقرأ في الكون أوامر الله ورغباته الجليلة، الكون السائر بانتظام متزن لا يهتز، الكون الذي لا تقوم فيه حركة بغير مصلحة مركبة للبشر، الكون الذي تقوم كل مكوناته على الجَمال المطلق، يريد الله أن يلفت أنظارنا إلى هذه الأشياء الجميلة، فيكثر القسم بها في نصوص القرآن، حين يقسم الله بالشمس يريد أن يخبرنا أن وراءها أسرارًا تستحق منا التوقف، ليست مجرد ضوء دافئ معتاد، نراه كل يوم، هو العظيم ليس في حاجة لأن يقسم بشيء آخر سواه، لكنه أقسم بالشمس وبالقمر وبالفجر وبالضحى وبالنهار وبالليل، يختار حين يقسم بالصبح لحظة واحدة فيه وهو يقول "والصبح إذا تنفس"، ويختار لهذه اللحظة أجمل تعبير تصل به إلى نفسك، حتى ليتحول الصبح معك بعد هذه الآية، إلى كل معاني الحياة الحية، لتقول حين تسمعها أيها الصبح: إني أحبك حين تتنفس.

هذا الانفتاح الجديد لمعاني القرآن في نفسي، جعلني أعيد النظر في كل المفردات التي اكتسبتها قبل ذلك، كانت معاني الألفاظ تتغير دون أن أشعر، ألحظ ذلك في إدراكي لأشياء كالشمس والقمر والنهار، لم أعد أراها كما كنت أفعل، في نفسي أن هذه الأشياء تحمل لي حديثًا خاصًا، أبي وأمي وإخوتي وأصدقائي وليلى، الحياة والموت والسعادة والشقاء، الحنين والشوق والرضا، كل ذلك اكتسى معاني أخرى أوسع، المعاني الجديدة أحس أنها أكثر وضوحًا، كان إحساسي بهذه المعاني الجديدة يشبه إحساسي حين ارتديت نظارتي لأول مرة، لم أكن أشعر قبل ذلك بأن في الحياة أشياء

لا أراها بوضوح، في ذلك اليوم جربت السير في كل الطرق التي كنت أعرفها، كنت أطيل النظر إلى كل ركن في غرفتي وأنا أضع عدساتي الجديدة أمام عيني، الحدود الحادة المرسومة للأشياء تجعلها تبدو كأنها تنطق، أدركت يومها أنه لا يكفي جنس الرؤية لتصل الأشياء كما هي، نرى الأشياء عادة كما تطيق عيوننا لا كما تبدو هي في الحقيقة.

لا يمكنني الآن التخلي عن عدساتي، أستغرب الصور التي أراها في غيابها، الأشياء القريبة وحدها ما يمكنني رؤيتها دون عدسات.

* * * * *

عرفت حسين عن قرب أكثر في هذا السجن، وعرفت زملاءه جميعًا، يكفي أن أرى وجه أي منهم في اليوم، ليغمرني هدوء واطمئنان، لا أعلم إن كان السر هو اجتماعنا في هذا المكان أم أن هناك سرًا آخر، سرًا يكمن فيهم، وجودي بينهم جعلني متصالحًا مع كل شيء حولي، حتى مع قلة الماء وضيق المكان وآلام جسدي من برودة الأرض التي ننام عليها!

وأنا أسمع من رضا: "ونزعنا ما في صدورهم من غلٍ إخوانًا على سرر متقابلين" قلت له: أُحسُّ أن هذا أعظم نعيم في الجنة بعد رؤية الله.

قال: ولِمَ؟

قلت: لو دخل الناس الجنة بذات نفوسهم التي عاينت الغل والتحاسد، لما شعروا بأي نعيم، أعظم النعيم يصبح ألمًا عظيمًا حين يشاركنا في إدراكه الشر الذي في نفوسنا، وأعظم الشقاء يكون نعيمًا إذا زال هذا الشر منها.

أدرك الآن لماذا أشعر بالسعادة هنا، مثل هؤلاء لا يمكن أن تكون في قلوبهم مشاحة وغل، حتى إن كانت فيهم قبل ذلك، فإن هذه الجدران كافية لتخفيها إن لم تمحها.

في السجن تصبح النفوس صافية خفيفة؛ لأنه لم يعد يشغلها أي حدث من أحداث الدنيا، في السجن تضيق الحياة حتى تعود إلى صورتها البسيطة الأولى، الأيام المرتبطة بنمو اليوم تبدأ معه وتنتهي مع انتهائه، لا يشغلك من أمور الحياة المعتادة شيء، ولا حتى طعامك، رغم أنه لا يكون في العادة شيئًا جيدًا، إلا أنه دائما يأتي في أوقات منتظمة ثابتة، وسرعان ما تعتاد الصورة التي يكون عليها فلا تشعر بغرابته.

ذات النفوس التي ستكون في الجنة، النفوس التي يتم بها النعيم هناك، حين لا بحث ولا سعي ولا تدافع على الوصول.

حين تحط كل الرحال.

ويستريح الحادون.

حين تسلم ملائكة الجنة:

"سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين".

* * * * *

(١٥)

كان أول مكان شعرت برغبة في زيارته، حين خرجنا من السجن، هو جامع عمرو بن العاص، ذهبت أنا وليلى إلى هناك، قضينا اليوم في المتحف القبطي والكنيسة المعلقة ثم انتهينا إلى جامع عمرو.

أردت أن أرى أول أرضٍ صلى فيها المسلمون في مصر، أول حرف في نسخة الإسلام التي بقيت هنا، يبدو الإسلام نسخًا كثيرة في البلاد التي دخلها، ربما لأنه لم يكن وقتها قائمة أفعال ومنهيات، كان نظامًا عامًا، وكل حضارة أطّرت نفسها على هذا النظام، لم يحول الإسلام بلاد فارس والعراق والشام ومصر والمغرب إلى نسخته التي كانت في مكة، في المتحف شعرت أن الفن القبطي أدواته تشبه أدوات الفن الإسلامي الذي عرفناه بعد ذلك في مصر، لا يمكنني معرفة أيهما تأثر بالآخر إلا من تواريخ تلك الأعمال، ليست الفروق إلا في المفردات الصغيرة التي تتعلق بذات الدين نفسه، وحدات الزخرفة الصغيرة والمنمنمات على تيجان الأعمدة والألوان المستخدمة في صباغة السجاد أو طلاء الجدران، كل ذلك لم يختلف منه شيء، الزجاج الملون المتداخل في نوافذ الجص التي ملأت جدران المساجد الإسلامية ونوافذها، المصابيح والثريات المنقوشة، كل ذلك أجد له أصولا كثيرة هنا.

المعرفة الإنسانية واحدة، كما أن الألم الإنساني واحد أيضا، ألم الجرح في العصر البابلي هو ذاته ألم الجرح في الحروب الحديثة، والشوق الذي عاني منه قيس هو ذات الشوق الذي عانى منه روميو، لا تختلف المعرفة ولا الآلام بطول السنين ولا باختلاف الأديان التي حملتها.

في فترات الطفرات المعرفية الواسعة، تحتاج الإنسانية إلى من يحمل عبء هذه الطفرة ويستوعب اتساعها المفاجئ، ويكون قادرًا على الاستفادة منها في عمارة الحياة، يَكِلُ الله المعرفة الإنسانية للقادرين على تحملها، حينما أُسندت المعرفة الإنسانية إلى المسلمين في الفترة التي حكموا فيها العالم، كانوا وحدهم القادرين في ذلك الوقت على تحمل هذا العبء والقيام به بانفتاح ومرونة، لم يكن الشرق ولا كنائس أوروبا المغلقة حينها أهلاً لأن تتحمل الإرث الإنساني من المعرفة.

تحمَّله المسلمون وقاموا به، ثم لّما فقد المسلمون قدرتهم على ذلك، تحمَّله سواهم.

في كل مراحل انتقال المعرفة الإنسانية وتطورها، تكتسب كثيرًا من صفات الذين حملوها، يمكنك دون معرفة أي عصر شهد ميلاد معرفة ما، أن تتنبأ بذلك حين تحلل خصائصها.

المعارف التي ولدت في الصين والمعارف التي ولدت في مصر القديمة والتي ولدت في الشرق العربي والتي ولدت في أوربا الناهضة أو تلك التي ولدت في العالم الجديد بعد ذلك، لا يمكن أن يتطابق اثنان منهما أبدًا لا في فلسفة العلوم ولا في تطبيقاتها.

* * * * *

في جامع عمرو أول كلمات نسخة الإسلام التي هنا، يقع الجامع شرقي النيل، في مكان فسطاط عمرو الذي تركه حين رحل إلى الإسكندرية، و لم ينقضه لأن يمامتين كانتا قد عرشتا فيه كما تقول الرواية، قرب أكبر حصن كان في فتحه فتح مصر وشمال إفريقيا كلها، وقرب كنيسة قامت على معبد روماني قديم.

أول كلمة كتبها الإسلام هنا، كانت نسخة تامة في اكتمال حسنها، فيها محاولة الاقتراب من الأصل حين قال عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص: لا تجعل بيني وبين

المسلمين بحرًا، رغم طول المسافة بين المدينة ومصر، الذي يجعل عرض النهر صغيرًا لا قيمة له، اختار عمرو شرق النهر عاصمته، فيها حِلم وسعة وشموخ.

حوله بدأت تنمو مدينة الفسطاط وتتسع، ككل العواصم التي بناها المسلمون في بغداد والبصرة ثم في القيروان، كان المسجد أول بناء وهو المركز الذي تولد الحياة حوله بعد ذلك، كما تنتهي إليه.

في جامع عمرو، أكون أكثر صفاءً وراحة من مساجد كثيرة أخرى، أشعر أن السماء قريبة منه، اتساعه وهدوؤه وبساطة البناء الذي قام عليه، يشيعون في نفسي إحساسًا بالأمان، يحضرني فيه قول الله تعالى: "لمسجد أُسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه".

إن لم يكن ذلك هنا في هذا المسجد الذي سمع هذه الرسالة قبل سواه، المسجد الذي شهد ميلاد فقه الشافعي الجديد حين نزل مصر، والمسجد الذي باع فيه العز بن عبد السلام ملوك مصر؛ لأنهم مماليك لا يجوز لهم أن يحكموا الأحرار، وجعل ثمنهم في الجيش الذي حارب به المصريون المغول، فأين يكون؟

ذكرت لليلى ما أجده في هذا المكان حين خرجت إليها.

قالت: أتعرف؟ إنني أشعر وأنا هنا أني أقرب للجنة، لابد وأن ملائكةً كثيرة تجتمع هنا، كل طرق الجنة التي عرفها البشر تجتمع هنا، حتى ولو كان كما يدعي البشر واحدًا فقط هو الصحيح، فلابد أن ملائكة هذا الواحد هنا أيضًا.

سكتت لحظة ثم قالت:

– لماذا تتعدد طرق الجنة؟

– لأنها كبيرة، تحتاج أن نتعب لأجلها ونحن نختار الطريق الذي نسير إليها فيه.

– لكنها مغامرة! مغامرة كبيرة أن تختار! لا تملك هذا الحق إلا مرة واحدة كالزواج عندنا.

سكتت لحظة ثم سألت: كيف سيحاسبنا الله؟

– لا أفهم.

– إن الله لن يحاسبنا من نماذج إجابة مسبقة، ليست الحياة أسئلة لا يجاب عنها بكلمة واحدة فقط، الحياة نصٌ طويل، قد نجيد مقدمته ثم يهرب منا متنه، أو يكون متنه جيدًا لكن مقدمته سيئة!

– المهم في هذا النص هو خاتمته وخلاصته.

– مغامرة، نص بهذا الطول مغامرة كبيرة أن تصل إلى خاتمته.

على سلم المحطة قبل أن نرحل، وقفت تنظر إلى المكان كله وهي تقول: أليست كل الملائكة هنا، لنتمن إذا أمنية، لابد أنها ستصل إلى السماء.

احتوانا الصمت حتى وصل القطار إلى حيثُ ستترل فسألتني: ماذا تمنيت؟

قلت: أن يقبل دعائي.

(١٦)

حتى ذلك الوقت، لم أكن قد وضعت اسم ليلى صريحًا في دعائي، أخاف أن يرده الدعاء كما فعل مع رانيا من قبل، ولا أستطيع أن أختبر ذلك، لا أريد أن أفقد أيًا منهما.

أدعو: اللهم لا تعلّق قلبي بما ليس لي، لكن لساني يسبقني: واجعل لي فيما أحب نصيب.

تسألني نفسي: ولو لم يكن صالحا لك؟!

فأزيد: واجعله صالحًا يا رب لي.

كنت أرتاح لهذه الصيغة أول الأمر، أدعو بها على تخوّف ورجاء، ومع الوقت تكبر ليلى في نفسي أكثر، وتصغر أمامها هذه العبارات الصامتة.

ما في نفسي لا يمكنه تحمل أن أدور حوله بعبارات لا تقوم بحقه كاملاً، يختنق الحب حين لا تستطيع اللغة إخراج مكنونه حتى مع الله.

لماذا أُخفي ما في نفسي بعبارات خرساء، والله يعلم الحقيقة كلها؟ يعلم أني أحب ليلى.

"ليس على الأرض من يشعر كيف ولدته أمه، لكنني رأيت بنفسي كيف ولدت تلك الحبيبة نفسي"، الله يعلم أنها هي التي مرت بيدها على أركاني المتهدمة وأعانتها الأقدار على إقامتي وبنائي.

لن يغضب مني حين أخبره أنني أحب ليلى.

اللهم وأنت تعلم حقيقة ما في نفسي، تعلم كيف كانت قبل أن تلقاها، وتعلم كيف أضحت حين استضاءت بها، تعلم أنني ما سعيت لذلك كله، وكنت أتحاشاها، أبتعد قدر ما أطيق، وأعرف أنها أبعد من أن تكون.

لكنها كانت

وكانت نفسي بها

.بمشيئتك وحدك

"خلقت الحب ثم جرى علينا

والمشيئة لك

وأنت مقلب القلب الذي

إن حاد عنك هلك

فإن تسأله عن ذنب

فعن عفو الرضا سألك"*

أليست حياتي كلها لك، اجعلني ألقاك وقد زينتها بها، ستكون رحلتي أجمل حين أصحبها معي ونحن نسير إليك.

حين نلقاك سويًا

أنا وهي

"أنا بفؤادي الخرب

الذي عمرته بسناك

وليلاي التي جاءت

إلى الدنيا لكي تلقاك

أما علمتني الأسماء

ليلى أجمل الأسماء

وأنقى ضحكة في القلب

أتقى نهنهات بكاء

وآخر فرصة للأرض

كي تجد السماء

سماء،"*

بحقك وقد علمتني الدعاء وملأت به قلبي.

وبحق أبي آدم الذي عرفك فأحبك وتبت عليه حين عصاك فتاب.

وبحق الشمس الجميلة التي أقسمت بها وبحق القمر وبحق النهار وبحق نفسي.

ألم تقسم بنفسي، ألستَ أنت من سواها، وألهمها فجورها وتقواها، ألهمها أن تحب وأن تكره، أن تسعد وأن تحزن، أن ترضى وأن تسخط.

وأن تحب ليلى

البعيدة بعد السماء

القريبة قرب الروح

هب هذه النفس يا رب رشدها، اهدها سبلها واملأها بفيض الإيمان بك، وجميل التوكل عليك، وأحيها بمعرفتك، واجمع بينها وبين مَن تحب، جمعًا يسعدها ويرضيك.

جمع تمام واكتمال.

يا الله.

(١٧)

في امتحان التوحيد، يسألني الأستاذ: من أفضل، آدم أم الملائكة؟

أجيبه أن الملائكة حتما أفضل؛ لأنهم لم يخطئوا أبدًا.

قال: ولماذا إذًا سجدوا لآدم وهم أفضل منه؟

قلت: لكن آدم عصى!

قال: وتاب,

قلت: وخرج من الجنة!

قال: ليعود إليها خالدًا فيها، الخروج من الجنة لا يعني الذهاب إلى النار، آدم والشيطان كلاهما خرج من الجنة، عاد إليها آدم و لم يعد الشيطان، عاد لأنه أحب الجنة وأراد أن يعود إليها.

أتذكّر ذلك وأنا أسير وحدي بعد مغادرتي لحسين، للمرة الأولى أطلعه على ما في نفسي نحو ليلى، كنت أعرف ما سيقوله لي، لكنني أردت أن أحكي لأي أحد، أريد أن يخرج الأمر من نفسي لغة منطوقة حتى ولو لم أجد لديه ما يريحني.

قال: أقول وتسمع رأيي.

قلت: نعم،

قال: لأي شيء نتزوج؟

قلت: لتكون حياتنا أجمل.

- فقط!

- فقط.

- وبناء بيت، وتربية أولاد، وصناعة جيل جديد صالح؟!

- ألا يجعل هذا حياتنا أجمل!

- يجعلها أصعب، ربما لا تكون أجمل لكنه واجب الإنسانية.

- هل نتزوج قضاء لواجب الإنسانية، ألا تفنى الإنسانية مثلا!! ماذا تستفيد الإنسانية لو بنيت بيتا وربيت أولادًا لم يفلح منهم أحد، لم يدرك أحد منهم ما تعنيه هذه الإنسانية، تعذبت في ذلك ثم رحلت عنهم!

- لسنا مطالبين بالبحث عن ذلك، دعني أسألك سؤالا آخر: هل كل ما يجعل حياتنا أجمل يلزمنا عمله، ألا تجعل الذنوب حياتنا أجمل، ألا تُكثِّر السرقة مثلا أموالنا، ألا تسعدنا مصاحبة النساء؟

- ليس هذا جميلا.

- في نظرك؟!

- بل في تعريف الجميل ذاته.

- وما تعريفه فيما ترى؟

– الاتزان.

– لم أفهم.

– الجمال هو الاتزان، وهو الحرية، المال المسروق يخل اتزان الحياة، العلاقات المختلة بين الرجال والنساء تخل اتزان الحياة، لذلك تفقدها جمالها، خلق الله الكون كله جميلا، موزونا، بقدَر، حين طالته يدنا دون وعي اختل توازنه، فبدأ يفقد جماله.

حين يتناسب كل شيء حولك تصبح الدنيا جميلة، نحن نتزوج؛ لنصل لهذا الاتزان، لتكتمل كرتنا في انطلاقها إلى غايتها، نصف الكرة يعجز عن الدوران وحده.

قال: وحين تكتمل الكرة بنصف لا يناسبها؟!

قلت: تتعثر، لذلك نبحث عن نصف يماثلها.

قال: وإذ لا نجد.

قلت: نحاول أن نقترب.

قال: وليلى نصف كرتك الذي يماثلك؟!

قلت: قد يكون النصف الصحيح بعيدًا، أو لا نستطيع الوصول إليه، وهو ما يخالف الجمال الذي قام عليه الكون، أتعرف لماذا؟ لأن هذه المسافة البعيدة وهذا الحاجز الكبير ليس من صنع الله، بل من صنعنا نحن البشر.

الله قال إنه خلق لنا من أنفسنا أزواجًا لنسكن إليها، وحدهن اللائي خلقهن الله من نفوسنا هم من جعل الله المودة معهن جعلاً، أما سوى ذلك، فنحن من نحاول إيجادها، فننجح أو نخفق.

– الله خلق حواء من آدم، هذا معنى الآية.

– قال من أنفسكم، و لم يقل من نفس أبيكم، من نفسي أنا خلقت امرأة واحدة، أنا أبحث عنها، كلنا يبحث عنها، أحيانا نوفق وهو قليل، وحينها يكون السكون والمودة والاكتمال والتماهي، أو نقارب، فيجتمع فيه سكون ومشقة، أو نبتعد كثيرا، لذلك شرع الطلاق، ثم يغني الله كلا من سعته، لم يعتب الله على أي الطرفين، لم يقل إنه سيهب المظلوم خيرًا ويعاقب المخطئ، في انتهاء علاقة الزواج لم يسمِ الله أحدًا مخطئا، وعد أنه سيغني الجميع، لأن الجميع كان يبحث عن الاكتمال، و لم يفلح.

– لو كان كما تقول لما تزوج أحد.

– بل لاكتمل كل من تزوج.

– كأنك لست كغيرك من الناس.

– ولا أنا كالملائكة.

– وتعرف الخطيئة الإنسانية وتقدر لها قدرها!!

– وأعوذ بالله منها وأتحاماها.

* * * * *

آدم تميّز عن الملائكة بقدرته على الاختيار، لم يخير الله الملائكة في العبادة، لكن آدم خُيِّر واختار، وحين عصى، عرف أنه عصى، فحزن وتاب، عرف ذلك بعقله، بما علّمه له الله حين فاخر الملائكة به: "قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم".

هي اللغة سبيل العقل، ليس للأشياء معانٍ دون أسمائها التي تقع عليها، لذلك كان اختبار الملائكة بها، بهذه الأسماء، بلغة المعرفة، ونجاح آدم في ذلك كان وحده التبرير الإلهي للملائكة بأحقيته هو للسجود.

كبر آدم في السماء بالعقل الذي منح له، هذا العقل الذي وكلت إليه اختياراتنا، وهو الذي ارتبطت به مصائرنا، هذا العقل لا يتحمل عنا ألم هذه الاختيارات، يوهمنا قوته وتحكمه، يرتب ويقدم ويؤخر، وحين نختار شيئا لا نعرضه عليه يكون من حقه أن يغضب، حين نختار لأننا نحب، يقول إن القلب ليس أهلاً لتحديد المصائر، ليس مسؤولا عنها ولم يخلق لها، حين نختار لأننا نتألم، يقول إنه ولا حتى الألم مهما كان مسوغًا لأن يختار وحده، كل تلك أبواب تؤدي إليه ومنه وحده يخرج القول الأخير، وحده القادر على القياس والحساب.

لكنه على ذلك لا يتحمل أيا من نتائج هذه الاختيارات، فحين نتألم لأننا تبعناه في أمر، فإننا لا نجد لديه إلا مواساة نظرية ميتة.

يعرف العقل كل شيء، إلا أن يدرك الألم أو يستشعره.

مع ليلى يقول العقل: لا تقترب منها؛ لأنها ليست على دينك، بأي دين يدين أبناؤك حين يكونون، بأي رسالة يلقون الله، بأي صلاة تدعون إذا لجأتم إلى الله في حال، بأي عيد وبأي صيام وبأي ذكر؟

ويقول القلب: إن هي إلا أسماء سميتموها، الله واحد مهما اختلفت إليه الطرق، يسمع منا جميعا، ويجيبنا جميعا.

وتقول نفسي: أنت تحب الله، وتحب ليلى، وتبذلني أنا في سبيلهما، فلا تبذل نفسك إلا فيما هو أعلى منها.

يقول العقل: ليس أعلى منها إلا الله.

ويقول القلب: وليلى!

لماذا تقارن بينهما وهما لا يقارنان؟! الله أكبر من أن يوضع في كل مقارنة في حياتنا، إن كل اختيار نصل به إليه اختيار صحيح.

يقول العقل: حين تريد أن تصل إلى الله، اسلك طريقه الذي اختاره هو، لا طريق هواك.

- وكيف أعرف طريقه؟

يا الله..
أريد أن أكون معك.

(١٨)

كنت وحيدة الروح لا أعرفك ولا تعرفني وأنا أجوب الأرض أبحث عنك، طيف في نفسي لا أدرك حدوده، أحسه ولا أراه، أعلم يقينًا أنه موجود وأنه قريب، وأنني يوما ما سأعثر عليه، وأشرق بنوره على هذا العالم نجمة تكشف الجمال فيه.

كنتَ في نفسي..

قديمًا قدمها، حيا حياتها، مستوحشًا غربتك فيها، وكنتُ أعلم ذلك وأجدُّ في البحث عنك ليستريح طيفك، في كل عين وفي كل صوت، في كل طيف وفي كل ضوء، في كل عابر أراه أطلع طيفك عليه فيستوحشه ولا يعرفه.

كنتَ في نفسي..

أحس حزنك فأواسيك، وأتخيلك سعيدًا فأشاركك سعادتك، وأراك عظيما فأفاخر بك.

كنت في نفسي..

طفلا أدللـــه، ورجلا كاملا أحتمي فيه..

وكنت قريبًا مني..

أراك وتراني، أعرفك وتعرفني، تزين خطوك إذا علمت أني أرقبه، وتتحسس حديثك وصوتك إذا أدركت في السامعين أذني، فأحس ذلك وأعرفه، وأفرح به وأخشاه،

أحس الطيف يعرفك
يفرح بك ولا يستوحشك
يخبرني أنه أنت أنت
فيزيد فرحي ويزيد خوفي
أضيء بك

لكنني أبتعد
وتقترب

أكثر فأكثر

لأدرك العلامة حين يكتمل ضوئي
وأكون النجمة.. بك

تقول إنك عرفت معي جمال الكون

وأنا أقولك لك: سر ذلك فيك، لا فيّ، أنت أضأت نفسي فرأيت بها الجمال، رأينا الجمال معًا، وحدك لم تكن لتراه، ووحدي لم أكن لأحس وجوده.

عرفتني وعرفتك.

وعرفتَ العالم بي وعرفتُ العالم بك، وكنتَ وكنتُ، نقترب ببطء وخوف، حتى خشينا أن نقترب أكثر فنصطدم، لنتوقف دون اتفاق منا.

كشجرتين تعانقتا بفروعهما، تشابكت جذورهما وظلت ساقاهما على البُعد، ومن عناق فروعهما الظل والبرَد، وفي ابتعاد ساقيهما الشوق والحنين.

لو تطوى الأرض لهما!
لو يملكان حراكًا!
لو تدبّ فيهما الحياة!
لو يموت فيهما الخوف!
لو تجرأتَ أكثر!

أحببتني فكرة وأحببتك أفكارا
أحببتني روحا وأحببتك سدرة أرواح
أحببتني إنسانا وأحببتك مَلَكًا
أحببتني امرأة، وأحببتك رجلاً

لكن الجنة حالت دونك ودوني، جنتك وجنتي، إجابتك وإجابتي، كانت لنا نفس الأسئلة و لم تكن لنا ذات الإجابات!

هي هي الجنة، لكنك تسلك لها طريقًا غير الطريق الذي أسير فيه.

قلتُ لك: نسير معا كلٌ في طريقه.
قلتَ: لا يجتمعان.
قلتُ: نحاول.
قلتَ: لا يمكن.

الآن أدرك أننا ما دمنا نريد الجنة فسنصل إليها، سنهتدي للطريق حين نبدأ المسير، حتى لو بدأنا في الطريق الخاطئ.

ستنادينا الجنة.
ستبحث هي عنا كما بحثتُ عنك وبحثتَ عني.

ستعرفنا كما عرفتُك وعرفتَني.
وستسير إلينا كما نسير إليها.

لنصل ونعانقها.

عناق المشتاق الذي أنهكه السير.

ونضيء بها.
ضوء الفجر الذي اشتاق النهار.

ونزيد بها إشراقًا

كما زدت بك.. إشراقًا.

معًا
سنطوف
حول العرش
عند إقامة الميزان
وملء جيوبنا ذنب
وملء قلوبنا الإيمان
فيشملنا لأجل الحب
عفو الحاكِم الدّيان*

* الليالي الأربعة: أحمد بخيت.

الكاتب:

محمد أحمد العدوي
المنصورة / ١٩٨٢
طبيب عيون
نشرت له: حين يضحك البحر
مجموعة قصصية عن دار اكتب / يناير ٢٠٠٨

www.ataleofdays.blogspot.com
ibnsena82@hotmail.com

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٢٠٠٩/١٣٦٦١